زيارات للمسلمين في الاتحاد السوفيتي :

بلاد الداغستان

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

اللهم صل وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين عبدك ورسولك محمد وعلى آله واصحابه اجمعين.

اما بعد: فإن داغستان بلد مسلم عريق في إسلامه وهو بلد محب للعربية والعلوم الإسلامية مخلص في محبتها ويكفي في ذلك أن نذكر العلماء الداغستانيين الذين نبغوا في البلدان الإسلامية ومنها بلادنا بلاد الحرمين الشريفين في القديم والحديث.

وهو بلد الإمام المجاهد الشيخ محمد شامل الذي دوخ المستعمرين الروس في أثناء حكم القياصرة حتى فرض احترامه على خلفائهم الشيوعيين الجبابرة.

وهو بعد ذلك وقبل ذلك جزء غال من الوطن الإسلامي الكبير.

لذلك وضعنا زيارته في قائمة البلدان التي رغبنا في زيارتها داخل الاتحاد السوفيتي عندما وجهت لنا الدعوة لزيارة المسلمين في تلك البلاد.

فقد وجهت الإدارات الدينية الأربع لمسلمي الإتحاد السوفيتي الدعوة إلى رابطة العالم الإسلامي، لإرسال وفد لزيارة المسلمين في الاتحاد وطلبت أن يكون الوفد برئاسة الأمين العام للرابطة أو الأمين العام المساعد وكان منها الإدارة الدينية لمسلمي مادون القفقاس ومقرها داغستان وهي تكون (دون القفقاس) لمن يكون في موسكو ولكنها (وراء القفقاس) بالنسبة إلينا على ذلك القياس.

وقد رحبت رابطة العالم الإسلامي بالدعوة وتألف وفدها من الأشخاص التالية اسماؤهم:

محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد للرابطة (كاتب هذه السطور) رئيساً

الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الباز عضواً

الدكتور سعيد محمد باديب الباحث في شئون المسلمين عضواً

الشيخ سالم بن عبدالله السالم الأمين العام المساعد للدعوة الإسلامية عضواً

الشيخ عبدالرحمن بن رشيد بن عوين المسئول عن شئون الدعوة في أوروبا عضواً

الأستاذ رحمة الله بن عناية الله مختص بشئون المسلمين في أوروبا عضواً وأميناً لسر الوفد.

وقد سافرنا إلي الاتحاد السوفييتي في السادس من شهر شعبان عام ١٤٠٦هـ، ١٥ابريل ١٩٨٦م.

وزرنا جمهوريات عديدة في أنحاء واسعة من الإتحاد السوفييتي في أوروبا وآسيا.

وكان من بين ذلك بلاد الداغستان فكتبت عدة كتب عن مشاهداتي في تلك الزيارة جريا علي عادة أخذت بها نفسي منذ أول عهدي بالسفر إلى بلاد المسلمين أو بلاد الأقليات المسلمة فكان من ذلك كتاب:

«في بلاد المسلمين المنسيين : «بخاري وماوراء النهر» وقد طبع.

«جمهورية اذربيجان» وهو مطبوع أيضاً.

«ذكريات من الاتحاد السوفييتي»

وهذا الكتيب «في بلاد الداغستان»

وكانت زيارتنا تلك في أول عهد الرئيس جورباتشوف بالسلطة ولم يكن آنذاك قد أعلن سياسة (البروستريكا) أو إعادة البناء التي كانت فيما بعد فتحا للبلاد والعباد هناك، بل كانت البلاد في أعقاب سياسة متزمتة عرفت بسياسة العهد البريجينفي – نسبة إلى ليونيد بريجنيف الأمين العام للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفييتي وهو الذي أرسل الجنود السوفييت إلى أفغانستان لاخضاع الشعب الأفغاني المسلم فرد الله كيده في نحره وهزم جنده المعتدين ونصر جند الله المجاهدين، حيث خرج الجنود السوفييت بعد ذلك يجرون اذيال الخيبة والفشل.

وكنت قيدت ماقيدته من كتابات في تلك الرحلة والبلاد لاتزال واقعة تحت تأثير سياسة العهد البريجنيفي رغم هلاك بريجنيف واثنين من قصار العمر خلفائه على السلطة وهلكا دون أن يغيرا من سياسته شيئًا.

لذلك أبقيت ماكتبته دون تغيير لأنه هو الواقع الذي شاهدناه في الإتحاد السوفييتي أثناء رحلتنا تلك وقد أصبح الآن كالتاريخ الذي لابد من تسجيله.

أما ما حدث بعد ذلك من احداث عميقة وتغيرات جذرية في الإتحاد السوفييتي أهمها إعلان الشيوعيين أنفسهم هناك فشل الشيوعية وإسراع الشعوب التي تسكن الاتحاد السوفييتي ومنها الاخوة المسلمون إلى انتهاز الفرصة للعمل الجاد في إحياء تراثهم واستعادة مساجدهم وأوقافهم، مما استدعى أن يذهب وفد من رابطة العالم الإسلامي بل أكثر من وفد أحدها برئاستي شخصيًا إلى هناك لمساعدة المسلمين في هذه المرحلة فإنني كتبت عنها كتبًا أخرى منها (يوميات آسيا الوسطى) و(الرحلة الروسية).

والمهمة الأساسية لهذا الكتاب وغيره من كتبي تقديم فكرة واضحة عن واقع المسلمين في بلادهم عن طريق بسط المعلومات الميدانية الصحيحة لقراء العربية الكرام وأرجو أن يكون ذلك قد تحقق أو تحقق جزء كبير منه والله الموفق.

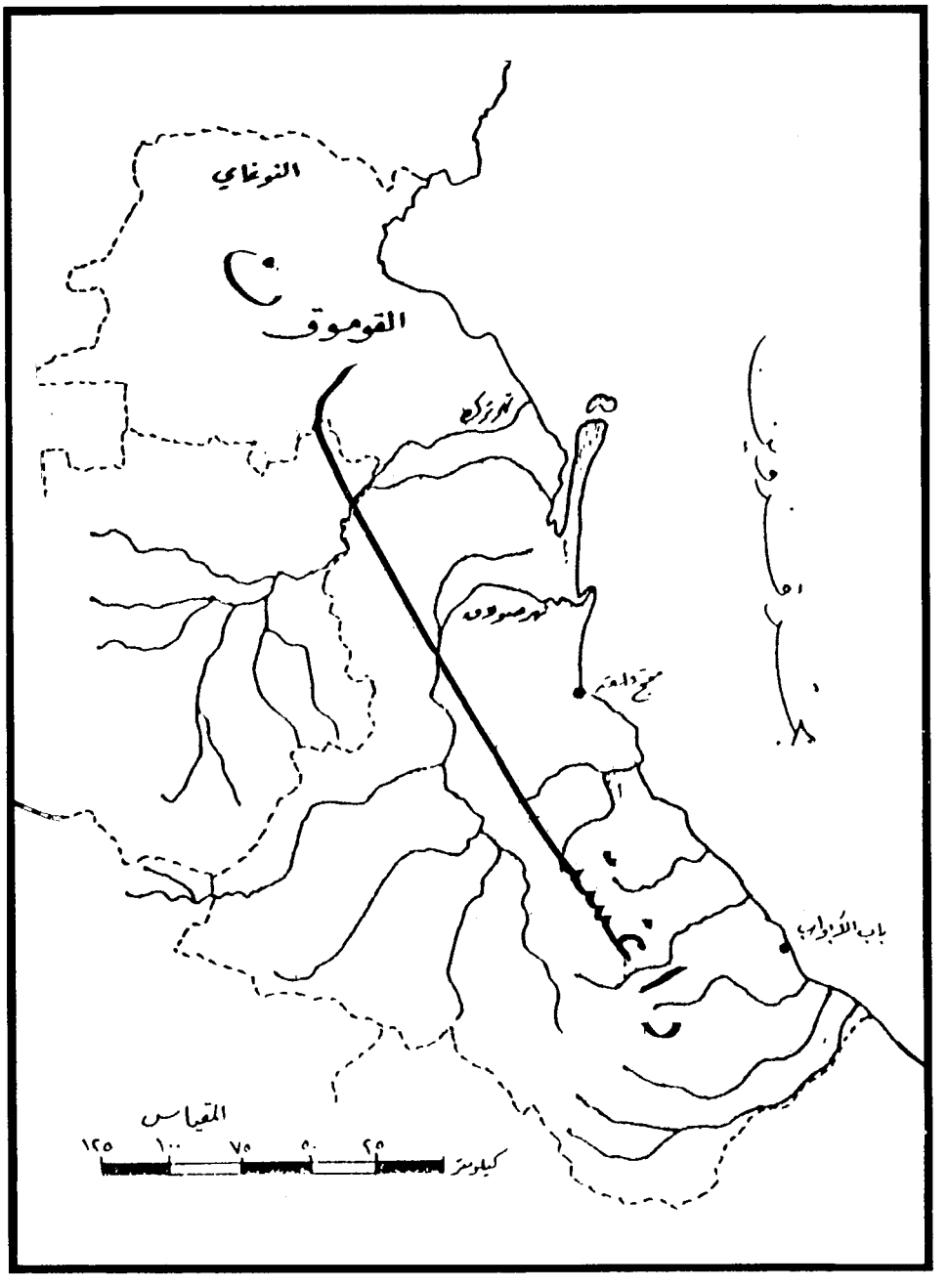

خريطة داغستان

معلومات تتعلق بداغستان :

نقدم بين يدي الرحلة هذه الدراسة عن داغستان التي أعدها الأستاذ رحمة الله بن عناية الله سكرتير وفدنا إلى الإتحاد السوفييتي وقد تطرقت إلى الماضي التاريخي والخلفية الإسلامية لهذه البلاد الداغستانية المسلمة.

داغستان بلاد جبلية تقع على الأجزاء الشرقية من جبال القفقاس التي تطل على ساحل بحر قزوين الغربي وتتكون حاليًا من ١٤ مقاطعة وثمان مدن وتبلغ مساحتها ٥٠٣٠٠ كم٢.

وهناك عدة آراء في تفسير اسم داغستان والقفقاس منها مايلي:

- داغستان اسم مركب من داغ اوتاع وتعني الجبل باللغة التركية وستان وتعني بلادا باللغة الفارسية وهو بهذا التركيب يعني بلاد الجبال.
- وفي المصادر العربية القديمة يطلق اسم جبل القاف على داغستان ويقال إن اسم القفقاس مركب من كلمتين هي قوة الفارسية التي تعني جبل ثم تحرفت إلى قاف وكاس من كلمة تركية تعني الأبيض واسم القفقاس بهذا التركيب يعني الجبل الأبيض.
- داغستان اسم مركب من كلمة داك. اسم شعب وستان من كلمة فارسية تعني بلادا وهو بهذا يعني بلاد الداك أو بلاد الداغ.

والواقع ان ثلثي اراضي داغستان جبال تقطعها عدة انهار اهمها نهر ترك الذي يصب في بحر قزوين قادمًا من بلاد قباردنيو - بلكاد ثم نهر صولاق يمر شمال مدينة محج قلعة ووديانها شديدة الإنحدار ضيقة ومع ذلك فهناك سهل ساحلي ضيق بين بحر قزوين وجبال القفاس.

وتشتهر داغستان بزراعة الحبوب مثل القمح والرز والشعير كما تنتج الفواكه والخضروات ويشتغل اهلها بالرعي وخصوصاً بالغنم وتشمل ثرواتها المعدنية النفط والغاز الطبيعي والفحم. ويوجد بها من الصناعات اليدوية السجاد إلى جانب صناعة الغاز والبترول.

سكان داغستان :

يتكون سكان داغستان من عدة قوميات تنتسب إلى العناصر الآتية:

١ – العنصر القوقازي ويضم الابخاز ومنهم الاخواخ Akhvakhs والاندي IN-DIA و الدارغين ومنهم كايتكاك Kaitak وكوباج Kubach اللاك – المازغي – الشيش – روتول – تساخور – اغول.

٢ – العنصر التركي ويضم – نوغاى – تتار – الاذاريين.

٣ – العنصر الايراني ويضم التات والفرس.

٤ – العنصر السلافي ويضم الروس والاوكرانيين.

وقد بلغ سكان داغستان ١٧٩٢٠٠٠ نسمة بموجب احصاء عام ١٩٨٩، ويضم أكثر من ثلاثين قومية أهمها هي:

الافار	٦٠٤٢٠٢
اللزغى	٤٦٦٨٣٣
الدارغين	٣٦٥٧٩٧
القوموق	٢٨٢١٧٨
اللاك	١١٨٣٨٦
تابساران	٩٨٤٤٨
النوغاى	٧٥٥٦٤
الروقول	٢٠٦٧٢
تساخور	٢٠٠٥٥
الاوغول	١٩٩٣٦

بالإضافة إلى هذه القوميات الداغستانية فهناك الروس والاوكرانيون البالغة نسبتهم ١٣٪ من جملة السكان، كما يوجد بضعة آلاف من اليهود المعروفين محلياً باسم داغ جوهوت يعني يهود الجبال.

اللغات في داغستان :

مع ان داغستان بلاد صغيرة إلا أنها حديقة غناء تضم عشرات القوميات التي تتباين لغاتها مع تنوع اجناسها ويصعب ان يتفاهم افرادها مع بعضهم رغم أنهم يعيشون متجاورين في محيط واحد حتي اطلق عليها جبل اللسان ولم يؤد هذا التجاور والإختلاط إلى بروز لغة ادبية واحدة مشتركة، بل استمرت القوميات تستعمل لغاتها المختلفة وهي:

١ – اللغة الأليريةولها ثلاث لهجات متباينة هي:

(أ) اللغة الافارية التي يستعملها الافاريون وقبائل إندي وويدو وارجى.

(ب) اللغة الدارغنية التي يستعملها الدارغين واللاك والقيتاق والقوباجي.

(جـ) لغة الساموين التي يستخدمها اللزغيون والرقول وتابساران.

٢ – لهجات تركية يستعملها القوموق والنوغاي والتتار والاذار.

٣ – لهجات فارسية يستعملها التات والفرس واليهود.

في الحقيقة داغستان هي الجمهورية الوحيدة في المنطقة التي لم يقم كيانها على شعب واحد أو بسبب وجود قومية واحدة كغيرها من جمهوريات الاتحاد السوفييتي بل هي جمهورية ذات قوميات مختلفة منها عشر لغات ادبية معترف بها رسمياً وهي:

الافارية – الدارغينية – اللاكية – اللزغية – التابسارانية – القوموقيه – النوغاية – الاذارية – التاتية – الروسية – وتستخدم هذه اللغات في المدارس الابتدائية فقط لأنها اللغات الرئيسية المرشحة لامتصاص بقية اللغات.

منذ أن دخل الداغستانيون إلى الإسلام حلت الأحرف العربية في تسجيل لغاتهم الادبية إلى أن فرضت عليهم الابجدية اللاتينية عام ١٩٢٨ ثم استبدلت بالأحرف السلافية عام ١٩٣٨.

انتشار اللغة العربية في داغستان :

هذه اللغات العديدة واللهجات الكثيرة كانت تشكل عوائق ثقافية واجتماعية تحول دون انسجام شعوب داغستان المختلفة ولكن الإسلام الذي وطد أواصرهم ووحد دينهم واعتقادهم ووثق صلاتهم الأخوية جمع كلمتهم فعلاً إذ غدت العربية اللغة الأدبية المشتركة لهذه القوميات ذات اللغات المتباينة وكان الادباء والعلماء يستخدمون اللغة العربية في كتاباتهم ورسائلهم واظهرت احصائية عام ١٩٢٦ بأن المتعلمين الداغستانيين يعرفون اللغة العربية أكثر من لغاتهم الاصلية.

ومع ان الحكم الشيوعي حارب اللغة العربية بتشجيع استعمال اللغات المحلية فإنه لايزال علماء الإسلام ورجال الإدارة الدينية الإسلامية يستعملون اللغة العربية إلى اليوم.

في الواقع ان انتشار اللغة العربية في داغستان كان مذهلاً لأنها لم تكن لغة العلوم الإسلامية التي يتعلمها المسلمون بهدف فهم ودراسة احكام الإسلام وتعاليمه من مصادره الرئيسية القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فحسب بل كانت لغة الأدب المحلي ولغة التخاطب والتفاهم بين شعوب وقوميات داغستان. وقد قدم البروفيسور اي. يو. كراجكوفسكي I.U. Krachkovski, بحثًا قيمًا عن الادب العربي في شمال القفقاس تكلم باعجاب عن انتشار الأدب المحلي باللغة العربية في داغستان فيقول ان كون اللغة العربية منتشرة علي نطاق واسع في فترات مختلفة من تاريخها وراء حدود الأقطار العربية ذاتها هو أمر مشهور منذ امد بعيد في العالم غير ان القفقاس الشمالي يتميز في هذا الخصوص، ويشير إلى هذا الخصوص بقوله «وفي الوقت الحاضر فاننا نستطيع بحرية تامة، ان نواصل هذه الفكرة، ،ان نقول انه ليس ثمة، في أي قطر غير عربي، أدب محلي نشأ بالعربية

وازدهر بذاته حتي الربع الثاني من القرن العشرين، وقد بهر الداغستانيون العرب وغيرهم بطلاقة لغتهم العربية وفصاحتها.

فيذكر مصنف أحد معاجم السير في اليمن في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي عند اجتماعه بعالم من بلاد داغستان فيقول عنه: إني لم أر ضريبا له في احسان التعبير البليغ واتقان اللغة الفصحى وتجنب السوقية والابتذال في الحديث والتلفظ الرائع وعند سماع كلماته تملكتني الغبطة والحبور حتى إن رعدة سرت في أوصالي.

أما المستشرق الهولندي سنوك هورغرونيه C. Snouck Horgronje الذي أقام في مكة المكرمة متنكراً بصفة عالم مسلم فقد كتب يقول: ينحدر من داغستان بعض من أفضل علماء المدينة المقدسة وقبل وقت قصير من قدومي إلى مكة المكرمة توفي العالم المشهور عبدالحميد الداغستاني، وهو عالم يضع كثيرمن الزملاء سعة معارفه واطلاعه في مصاف ارقى مما هو موجود عند السيد زيني دحلان».

ومن نماذج الرسائل العربية ينقل المستشرق الروسي كراجكو فسكي رسالة المجاهد الشيخ أحمد شامل الافاري وهي:

من امير المؤمنين شامل... إلى قائد الروس الجنرال الأمير البارون...

أما بعد: فقد بلغني انكم حجزتم الفقراء وعوائلهم الذين قدموا إلى ولاية جارسكايا للتموين وذلك لاستبدالهم بالاسرى الذين بين ايدينا ان هذا لعار عليكم أي عار وكذلك فانكم تنفون اللاجئين الذي اسرتموهم منا الآن وسابقًا إلي سيبريا فلتعرفوا انكم بهذه الفعائل لاتسخرون منا بل تسخرون من انفسكم، وتبعثون اسراكم بفظائعكم هذه إلى القبر ذلك أنه إذا كانت لديكم سيبريا فان لدينا القبر، وبالنتيجة فإما ان تطلقوا سراح اللاجئين الاسرى بدءاً بالبشير، او تعلمونا انكم لاتهتمون برعاياكم ولاتحرصون عليهم الحرص والاهتمام الكافي والآن فإننا ننتظر الجواب عن هذا، ولايقلقنا أمر ماذا تفضلون وماذا تختارون ولكن أجيبوا دون مطل أو تسويف.

نظرة إلى تاريخ داغستان :

منذ فجر التاريخ استوطن الأنسان بلاد داغستان وكانت الجبال والمرتفعات تؤمن له الحماية والأمان، وقد اشتغل بالصيد والرعي وخاصة رعي الاغنام، وقد أوجد اولئك القوقازيون القدماء حضارات انسانية قديمة من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي، لاتزال شواهدها ملموسة من حضارة كوباك وغيرها من حضارة منطقة القفقاس.

كانت منطقة القفقاس ملجأ لشعوب كثيرة وفدت إليها مستوطنة أو عابرة وكلها تركت بصماتها في تنوع القوميات واللغات التي استقرت بها اليوم، وتمثل بقايا شعوب كثيرة متباينة كانت تسكن بقاعا شتى في آسيا وأوروبا وهناك صلات قوية بين سكان القفقاس واليونانيين القدماء كما كان لشعوب القفقاس دور كبير في تاريخ الساسانيين في ايران والبيزنطيين في آسيا الصغرى وقد شهدت داغستان المعركة التي وقعت بين قورش ملك الفرس وتومريس ملك الاسكيذ عام ٥٢٩ق.م، وفي ذلك الوقت كانت مدينة شابران التي تقع بين دربند وباكو عاصمة فونق آلت الى ملك دولة ساكا.

وفي عام ٦٥ق.م احتلتها الرومان بعد هزيمة الالبانيين سكان داغستان القدماء ثم تمكن الالبانيون من استعادة قوتهم ودخول ايران عام٧٣م ولكن الحروب التي دارت بينهم وبين الأرمن استمرت إلى عام ٣٧٧م.

ثم دخلت قبائل الهون وسابير التركية بلاد داغستان في القرن الرابع الميلادي. واقام اتراك سابير دولة مترامية الاطراف كانت مدينة سمندر عاصمة لها في القرن السادس الميلادي ثم ظهر الأفار على مسرح الاحداث بعد هزيمة اتراك سابير على يديهم وخروجهم من دربند إلى منطقة كابالا في غرب شماخي عام ٥٥٨م. ولكن احتلها الساسانيون وكانت مسرحاً لحروبهم مع البيزنطيين، ولما بلغ المسلمون دربند عام٢٢هـ كانت فيها حامية من الفرس.

دخول الاسلام إلى داغستان :

بعد ان اتم المسلمون فتح ايران توجه سراقة بن عمرو عبر اذربيجان إلى مدينة دربند التي سماها العرب باب الابواب وفتحها عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي بعد مقتل سراقة بن عمرو رضي الله عنه في عام ٢٢هـ/٦٤٣م ثم توالت فتوحات المسلمين في بلاد القفقاس ولكن معارك المسلمين مع الخزر استمرت بين كروفر حتي عام ٣٥هـ/٦٥٦م واستشهد عدد من الصحابة رضوان الله عليهم في منطقة هايداك التي تقع مابين دربند وتاركو وادت إلى خروج الخزر من مدينة سمندر في داغستان وتركهم لعاصمتهم ايديل التي تقع على مصب نهر ايديل في بحر قزوين.

مسجد في داغستان

وقد استقر الحكم الإسلامي في عهد الأمويين بعد ان انتصر المسلمون على الخزر وتولى مروان بن محمد امر القفقاس عام ١١٧هـ/٧٣٤م فعمل على توطيد حكمه بتعزيز فتوحاته وبناء الاستحكامات وتوطين المسلمين فقد نقل سبعة آلاف اسرة من عرب الشام والجزيرة والموصل إلى ضواحي مدينة دربند ويذكر ان مسلمة بن عبدالملك والي منطقة الرحاب هو الذي اسكن ٢٤ألف من عرب الشام مدينة باب الأبواب.

ويفيد المستشرق د. م، دنلوب بأن الأبحاث الحديثة قد القت الضوء على وجود أسرة حاكمة في باب الأبواب هي اسرة الهاشميين وكانت لها روابط وثيقة مع اسرة شاهان قروان في مستهل القرن الرابع الهجري، ومما يوجد حالياً من اثارهم قلعة قريش وبها مسجد يعتبر نموذجاً رائعاً لفن الزخرفة الاسلامية في القرن السادس الهجري.

وفي عهد الخلافة العباسية ازدهرت داغستان وخاصة بعد زيارة الخليفة هارون الرشيد وزوجته السيدة زبيدة مدينة باب الأبواب عام ١٧٣هـ/٧٣٩م حيث امر الخليفة العباسي واليها خزيمة بن حازم بشق قناة بين روباس ودربند بهدف تنشيط الزراعة.

وعلى اثر مقتل الخليفة المتوكل واضطراب وضع الخلافة العباسية استقل هيثم ابن خالد الشيباني بولاية شروان عام٢٤٧هـ/٨٦١م. كما استقل هاشم بن سراقة السلمي بولاية دربند عام ٢٥٥هـ/٨٦٨م.

ثم تعرضت داغستان لغزو قبائل السلجوق بقيادة قراتكين الذي تمكن من بسط سلطان السلجوقيين على بلاد القفقاس عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م.

ثم غزتها قوات المغول بقيادة سوبوتاي عام ١٢٢٣/٦٢٠هـ واحتلت القفقاس بعد حروب شديدة وقتل وخراب وعندما قسم جنكيز خان مملكته الشاسعة وقع شمال القفقاس ضمن حدود دولة ألتون اورده أما القسم الجنوبي فكان من نصيب دولة الإيلخانيين في ايران وقد استمر النزاع بين هاتين الدولتين على بلاد القفقاس أكثر من مائة عام.

وفي عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م انتخب سكان ولايتي شيراون ودربند الشيخ ابراهيم حاكماً عليهم وتأسست به دولة دربندية حيث استمر أبناؤه في حكم هاتين الولايتين إلى عام ١٥٥١م بيد أن القفقاس وفيها داغستان تعرضت لغزوات توقتاميش ملك دولة ألتون اورده عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ولكن تيمور لنك صد هذا الغزو الذي نال من ممالكه عام٧٩٧هـ/١٣٩٤م وسار لمقاتلة توقتاميش وأصبحت مسرح قتالهما في القفقاس حيث انهزم توقناميش في معركة قرب نهر ترك وهكذا وقعت بلاد القفقاس بيد تيمور لنك ثم مالبث ان قام قرا يوسف ملك دولة قراقيونلو في اذربيجان بغزو دربند وشروان في عام ٨١٤هـ/١٤١١م ولكنها سقطت بيد الصفويين عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م.

كانت بلاد القفقاس مسرحاً للمعارك التي دارت رحاها بين الصفويين الشيعة في ايران والعثمانيين السنة في تركيا وقد ارتكب الصفويون مذابح كثيرة ضد سكان بلاد القفقاس السنيين لاجبارهم على التشيع مما دفع القفقاس للاتصال بالدولة العثمانية بطلب مساعدتها لانقاذهم من مظالم الصفويين.

ودخلت القوات العثمانية إلى بلاد القفقاس عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ودارت المعارك بين العثمانيين والصفويين بين هزيمة ونصر مما عرض داغستان إلى خراب ودمار واشعال فتنة دينية مذهبية بين المسلمين.

وقد أثار هذا الوضع غيرة الأمراءوشيوخ القبائل فقام جولاق تورخاي امير القوموق واحمد خان امير هايداك بتوجيه الدعوة لامراء داغستان فاجتمع اكثر من ٣٠ ألف مسلم من الافار وغازي وقوموق واقوشا وهايداك وجارتالا تحت إمرة الشيخ خاجي داود وهو من رجال العلم والدين في كوبا وسار الجميع نحو أحمد خان الذي نصبه الايرانيون اميراً على كوبا فقتلوه. كما قتل عميلهم حسين علي والي شروان في بلدة شيكي ثم استعاد هؤلاء السنيون مدينة شروان من الايرانيين الشيعة عام ١٧١٢م.

الاحتلال الروسي لداغستان :

انهيار دولة ألتون اورده ساعد الروس على بسط سيادتهم على خانيات صغيرة متنافرة، مثل خانية استراخان التي احتلوها عام ١٥٥٦ مما ادى إلى وجود القوات الروسية على مشارف القفقاس.

وفي عام ١٥٥٧ تزوج القيصر إيفان المرعب امازين ابنة تيموروك Timurok من امراء الشركس ثم انتهز خلاف الامير تيموروك مع الشراكسة لاقامة حصن عسكري علي ضفة نهر سونج.

وهكذا كانت بداية الغزو الروسي الذي احتل دربند عام ١٧٢٢ ولكن غادرها الجيش الروسي بأمر من الامبراطورة آن عام ١٧٣٧ وقد كانت تلك مناورة سياسية.

وفي عام١٧٨٤ بنى الروس قلعة فيلادي قفقاس ثم نقل القوازق الاوروبيون إلى حوض نهر كوبان وتراك وتوطدت صلات روسيا مع شعوب الارمن والكرج المسيحيين الحاقدين على الإسلام حيث اعلنت دخولهم في حمايتها وزودتهم بالاسلحة.

وكان المجاهد الشيشاني الشيخ منصور قد تولى حركة الجهاد لمقاومة الغزو الروسي وتحصن مع اتباعه في قلعة اقاما واستطاع ان يدافع عنها مدة ١٤يومًا حتي سقط اسيرًا في ايدي القوات الروسية عام١٧٩١ ثم حمل إلى القيصرة كاترينا حيث اعدم عام ١٧٩٤ ثم استولى الروس على خانية دربند عام ١٧٩٦.

وفي عام ١٨٠٠ تم اعلان الحاق جورجيا بالامبراطورية الروسية اثرها عين القيصر اسكندر الأول تستسيانوف Tsitsianof وهو من امراءجورجيا قائدًا عامًا علي القوات الروسية في سبتمبر ١٨٠٢ ولكنه قتل في خانية كوبا عام ١٨٠٦م ثم تولي الجنرال غلاز يناب Glazenap قيادة الجيش الروسي حيث استعاد مدينة دربند في عام ١٨٠٦ ومدينة انابا في ١٨٠٧ وخانية شيكي عام ١٨١٩م وخانية

شروان عام ١٨٢٠ وخانية اديوان عام ١٨٢٦ ثم استغلت روسيا معاهدة تركمان جاى التي وقعتها مع ايران في ٢٢فبراير ١٨٢٨ في تحكيم قبضتها على القفقاس حيث اصبح نهر اراس حداً فاصلاً بين ايران وروسيا.

وقد ادى الغزو الروسي لبلاد القفقاس إلى اندلاع حركة وطنية اسلامية وتولى زعامة هذه الحركة الوطنية التي عرفت بالمريدية ثلاثة من الأئمة على النحو التالي هم:

١ - الغازي محمد

٢ - حمزة بك.

٣ - الامام محمد شامل الافاري الاصل الذي استطاع ان يكون جيشاً نظامياً واسس في القوقاز مصانع لانتاج المدافع والاسلحة والذخائر والبارود ووضع تنظيماً لحكم البلاد في شكل مجلس تولى هو رئاسته وكان نائبه محمد امين الشركسي. وقد التفت شعوب القفقاس كلها حوله... وكان هدفه حماية القفقاس الاسلامية من العدوان وترسيخ احكام الإسلام في نفوس المسلمين وتربية روح الجهاد.

وقد استمر جهاد الشيخ محمد شامل القمري اكثر من ٣٥ عاماً ونجح فيما بين ١٨٤٣، ١٨٤٤م في انزال هزيمة ساحقة ضد الروس حيث اجلاهم من معظم بلاد القفقاس وغنم منهم اسلحة وأعتدة هائلة، مما أثار هلع الروس فدفعت روسيا حشداً من ٣٠٠ألف جندي حتي قضت عليه عام ١٨٥٩ بعد ان نال الاعجاب والتقدير من ألد أعدائه.

وقد كتب كارل ماركس عن بسالة الشيخ محمد شامل وقال: ايتها الأمم اعتبري بما يمكن ان يفعله الرجال في الحالات التي ترغب ان تبقى حرة.

وعلى أثر سقوط الشيخ محمد شامل في الأسر بدأ الروس في تطبيق سياسة الإفناء والطرد واستمرت المذابح الرهيبة إلي ان سقطت منطقة اخجيفو معقل

المقاومة القفقاسية في عام ١٨٦٥ وادت هذه الاجراءات الوحشية إلى انخفاض سكان شمال القفقاس في احصائية عام ١٨٩٧ إلى ١,٦٦٠,٠٠٠ نسمة بعد ان كان عددهم ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٦٠.

وعندما انفجرت الثورة الشيوعية شكل الداغستانيون حكومة مؤقتة عرفت باسم جمهورية القفقاس الشمالية واتخذت مدينة فيلادي قفقاس عاصمة لها في ٨ مارس ١٩١٧، وبعد استيلاءالبلاشفة على الحكم في روسيا في اكتوبر ١٩١٧ عملت حكومة القفقاس الشمالية لادارة البلاد عن طريق مجالس شعبية ولكن تمكن البلاشفة بواسطة الجاليات الروسية من الاستيلاء على بعض المدن وعقد البلاشفة مؤتمراً برئاسة كيروف احد اعوان ستالين في مدينة موزدوك في آخر يناير ١٩١٨ وكان معظم اعضائه من المستوطنين والجنود الروس فقرر المؤتمرون الإبراق إلى لينين بالاعتراف بحكومة البلاشفة وبقيت البقاع الشمالية من القفقاس التي يكثر فيها المواطنون الاصليون تسيطر عليها المجالس الشعبية المحلية التابعة للجنة المركزية لاتحاد القفقاس الشمالي التي كان مقرها مدينة تامير خان التي يسميها الروس بوينا كسكي وفي الاجتماع الذي عقد مع مندوبي الحكومة التركية في مدينة طرابزون ١٤ أبريل ١٩١٨ تم الاتفاق علي اعلان استقلال دول القفقاس وبناءاً عليه أعلن استقلال القفقاس الشمالي في ١١ مايو ١٩١٨ ثم أعلن استقلال جورجيا في ٢٦مايو ١٩١٨ ثم تلتهما اذربيجان وارمينيا في ٢٨ مايو ١٩١٨ وبادرت تركيا بالاعتراف باستقلال دول القفقاس كلها اعترافًا رسميًا، ولم تمض مدة طويلة حتي اعترفت دول الحلفاء بهذا الاستقلال.

بيد ان حكومة روسيا البلشفية احتجت علي هذا السلوك، وارسلت قوة بحرية من بحر قزوين لاحتلال بلدة بورترفسك الساحلية التي كانت تسمى شامل قلعة ولكن قوات جمهورية القفقاس الشمالية بقيادة الاميرالاي زيواربك داود استعادت نالجيك ثم طهرت مدينة حصاف يورت من البلاشفة وكذلك استردت بورترفسك (شامل قلعة) في سبتمبر ١٩١٨ واصبحت بذلك المناطق الجبلية والسهلية التي

يسكنها شعوب القفقاس الاصليون تحت سيادة حكومة جمهورية القفقاس الشمالية المستقلة ولكن تحالف القوات الروسية البيضاء التي كانت بقيادة الجنرال دينيكين مع الإنجليز أدى إلى احتلال مفاجئ لمدينه بورترفسك وإلى سقوط حكومة جمهورية القفقاس الشمالية في مايو ١٩١٩ وفر بعض رجالاتها إلي جورجيا حيث تم تشكيل مجلس القفقاس الشمالية وقد نظم القفقاسيون ثورة ضد الجنرال دينيكين وبدأت ثورتهم من بلاد داغستان والشيشان واستطاع الثوار استعادة الحاميات التي احتلتها قوات الروسية البيضاء والاستيلاء على اسلحتها وذخائرها مما ساعدهم علي تشكيل قوات شعبية نظامية وتألفت حكومة الثورة في شكل مجلس الدفاع عن القفقاس الشمالية يتكون من اعضاء مجلس القفقاس الشمالية واعضاء الجماعة الإشتراكية القفقاسية التي كانت تضم شخصيات بلشفية وعندما انهزمت القوات الروسية البيضاء وتولى الجيش الأحمر زمام السلطة استغل الشيوعيون القفقاسيون هذا الحدث حيث تولى الشيوعي سلطان سعيد كازبكوف رئاسة مجلس الدفاع عن القفقاس في ١٧فبراير ١٩٢٠ ثم تم تحويل هذا المجلس إلى مجلس الثورة الشيوعية بعد ان طرد الاعضاء غير الشيوعيين منه.

ورغم اندلاع الثورة ضد الشيوعيين والبلاشفة بقيادة الشيخ نجم الدين غوتسينكي والشيخ سعيد شامل والشيخ أوزون حاجي إلا أن الجيش الأحمر نجح في اخمادها ولكن ادى إلى تشكيل دولتين هما جمهورية داغستان وجمهورية القفقاس الشمالية ومنح الحكم الذاتي لهما بموجب قرار اللجنة التنفيذية المركزية في موسكو في ٢٠يناير ١٩٢١ ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً اذ الغيت جمهورية القفقاس الشمالية وانشئت بدلاً منها في عام ١٩٢٤ التقسيمات الادارية الآتية :

١ – جمهورية داغستان السوفيتية الذاتية الحكم.

٢ – جمهورية الشيشان الذاتية الحكم.

٣ – جمهورية الاوسيتين السوفيتية الذاتية الحكم.

٤ – جمهورية قرطاي – بلكار الذاتية الحكم.

والحقت هذه الجمهوريات كلها اداريًا بجمهورية روسيا، وبدأت الحكومة السوفيتية الشيوعية في تطبيق سياسة الترويس بقتل رجال العلم والدين والزعماء

الوطنيين وتنفيذ سياسة ترويس الثقافة والتعليم وعمليات تهجير البشر حيث كثف الشيوعيون توطين المهجرين الروس والاوكرانيين في بلاد المسلمين بينما تم نفي شعوب اسلامية من مناطقها إلى سيبريا عام ١٩٤٤.

الإسلام والمسلمون في داغستان :

في داغستان يقدر عدد المسلمين بحوالي ٨٥٪ من جملة السكان البالغ عددهم ١٧٩٢,٠٠٠ كما يبلغ نسبة الارثوذكس وأكثرهم من الروس والاوكرانيين حوالي ١٣٪ بالإضافة إلى بضعة آلاف من اليهود الجبليين المعروفين باسم داغ جوهوت.

والمسلمون الداغستانيون في الأغلب من السنيين الشافعيين وإنما توجد جماعات صغيرة شيعية من اللزغيين والآذاريين كما أن الطريقتين النقشبندية والقادرية الصوفيتين رائجة بشكل كبير وخاصة الطريقة النقشبندية التي ينتسب اليها زعماء الثورة المسلمون ولكن لاتوجد لهم زوايا صوفية وإنما يجتمع الاتباع مع مشايخهم وقبائلهم.

وفد رابطة العالم الإسلامي يؤدي الصلاة في أحد مساجد داغستان

ويذكر بأن عدد المساجد في داغستان قبل الحكم الشيوعي كان ١٢٣٥ مسجداً ولكن بسبب محاربة الشيوعيين للإسلام ومعالمه تقلص هذا العدد إلى ٢٧ مسجداً في عام١٩٨٦. كما أن السلطات الشيوعية أغلقت جميع المدارس الإسلامية وحظرت التعليم الديني واتلفت الكتب الإسلامية وصادرت الأوقاف.

والإدارة الدينية لمسلمي شمال القفقاس تأسست في مدينة بويناكسكي عام ١٩٤٤ ثم نقلت إلى محج قلعة عاصمة داغستان عام ١٩٧٤ وتتولى الاشراف رسمياً على النشاط الإسلامي وتوجيهه بما لايتنافى مع سياسة الحكومة السوفيتية وكان يرأسها الشيخ محمود كيكي منذ عام ١٩٧٨.

استقبال وفد الرابطة في داغستان

الشيخ محمد شامل القمري الافارى
في بلاد القفقاس

عرفت الثورة الإسلامية التي قامت ضد الاحتلال الروسي باسم «حركة المريديين» وتزعمها ثلاثة من اتباع الشيخ اسماعيل كوردمير مرشد هذه الطريقة الصوفية في القفقاس وزعماء هذه الحركة الوطنية التي اتسمت بالجهاد الإسلامي بمفهومه الديني هم مريدو بمعنى تلاميذ الشيخ اسماعيل كوردبير ثم هم مرشدو النقشبندية بين اتباعهم وقد تولى زعامة هذه الحركة الوطنية الدينية لمقاومة الغزو الروسي ثلاثة من الأئمة وهم:

١ – الإمام غازي محمد الذي يعرف بأسم قاضي ملا يعني القاضي العالم فقد كان فقيهًا عالمًا ولد في بلدة قمري Gimri في عام ١٧٩٣ وتولى حركة الجهاد الإسلامي عام ١٨٢٩ وإستشهد عام ١٨٣٢.

٢ – الإمام حمزة وهو من امراء الافار ولد في قرية هوزالت Hozalt عام ١٧٨٩ وبويع بالإمامة عام ١٨٣٢ وبدأ تطهير موطن الأفار من الروس المستعمرين ولكنه استشهد في مدينة هونزاك Hunzak عندما كان يؤدي صلاة الجمعة في جامعها يوم ١٩سبتمبر ١٨٣٤م.

٣ – الإمام محمد شامل القمري ولد في بلدة قمري عام ١٧٩٧ وتلقى تعليمه في مدارس بلدته وهو وان لم يرق إلى مصاف زميليه السابقين ولكن اوتي ذكاءًا حادًا وحسًاعسكريًا وكفاءة قيادية تولي بها زعامة حركة المريديين حين بويع بها في ٢ اكتوبر ١٨٣٤.

وقد بدأ الشيخ محمد شامل عمله بتنظيم داخلي حيث زار الجماعات والقبائل يتشاور معهم ويحثهم علي الجهاد واستغلت القوات الروسية التي كانت في بلاد الأفار سفره إلى بلاد الشيشان لاستعادة مراكزها بمساعدة العملاء وقطع طريق

العودة عليه إلى قرية اشيلتا وقد تمكن منها الروس بعد حروب طاحنة، فعاد الشيخ محمد شامل مع جنده لملاقاتهم في قرية تيليث حيث دارت معارك عنيفة بينهما دامت اربعين يوماً واضطر الجنرال فيزى Fezi قائد القوات الروسية إلى توقيع معاهدة انسحاب وتسليم الشئون الداخلية إلى الشيخ محمد شامل وادت هذه الحادثة إلى تقوية الروح المعنوية عند الداغستانيين واثارت فزع وهلع القيصر الروسي نيقولا الأول الذي جاء بنفسه إلى القفقاس عام ١٨٣٧ وعزل قائديه السابقين وعين بدلاً منهما القائد الروسي المشهور الجنرال فورتسوف Vorotsof قائداً عاماً علي جبهة القتال ثم وجهت الدعوة إلى الشيخ محمد شامل لمقابلة القيصر نيقولا الأول في تفليس إلا أنه رفض قبول الدعوة قائلاً مادامت القوات الروسية موجودة في داغستان لن اقابل القيصر أو قواده إلا في ساحة المعركة.

ادى هذا الموقف الصلب إلى الاستعداد العسكري من الطرفين واستطاع الشيخ محمد شامل استعادة بلاد الافار والشيشان إلى سلطانه وأخذت القيادة الروسية تحشد قواتها وعتادها ولكنها منيت بهزيمة نكراء في بلاد الشيشان في ١٥مايو ١٨٣٩ واستمرت المعارك بينهما مدة ٨٠ يوماً إلي أن سقطت بلدة اهولقوه Ahol-goh في ٢٩ اغسطس ١٨٣٩.

وبالرغم أن هذه المعركة اعتبرت انتصاراً للقيادة الروسية إلا أن القيصر نيقولا الأول كتب إلى الجنرال غراب يقول: ومع ذلك لازال الشيخ محمد شامل طليقًا ولانزال تحت تهديده مستمراً، واستغلت السلطات الروسية هذه الحادثة على ممارسة مزيد من الظلم والاضطهاد في المسلمين العزل وخاصة ان مظالم الجنرال بولو الذي عين قائداً وحاكماً عسكرياً على بلاد الشيشان انتقم من المسلمين الشيشانيين بهدم منازلهم وتخريب مساجدهم وقتل ابنائهم مما اثار سخط المسلمين عامة واستنجد الشيشانيون بالإمام محمد شامل وبايعوه على الجهاد في سبيل الله.

وقد استمر الشيخ محمد شامل في جهاده ضد الروس وعملائهم من معركة إلي أخرى والتف حوله المسلمون من بلاد القفقاس وانزل الهزيمة بالقوات الروسية التي كانت في امرة الجنرال غراب في ٤ يونيه ١٨٤٣ وحرر بلاد الشيشان وجنوب داغستان ومقاطعة ايليسو Ilisu من قبضة روسيا.

بيد أن القيصر نيقولا الأول الذي جن جنونه لهذه الهزائم بعث قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألفًا بقيادة الجنرال فريتاغ Feriytag إلى معسكر الإمام محمد شامل في دارغو في ٣١ مايو ١٨٤٥ ولكنها منيت بهزيمة فادحة وعادت مكسورة بعد ان قتل منها ١٣ ألف جندي وغنم المسلمون عتادها ومؤنها.

واشتعلت الثورة ضد الروس في بلاد الشركس وبلاد قبرطاي فجررت روسيا جيوشًا جرارة بلغ أفرادها ثلاثمائة ألف جندي وسلحتهم بالأسلحة الفتاكة ولكن المجاهدين مع قلة عددهم وضعف امكاناتهم ظلوا مستمرين في مقاومتهم ببسالة نادرة ولكن قلة الامكانيات العسكرية وعجز الدولة العثمانية عن مساعدتهم لمواجهة هذا الحشد العسكري المتفوق عددًا وعدة ادى إلى سقوط الإمام محمد شامل في ايدي القوات الروسية التي بلغ عددها سبعين ألفًا لمحاصرته في بلدة غنيب Gunib حيث استسلم لهم بشرط السماح له بمغادرة البلاد مع عائلته إلى تركيا وعدم احتجازهم وقد قبل القائد الروسي الجنرال باریاتسكي Baryatiski هذه الشروط ولقيه القيصر الروسي معانقًا. ولكن القيصر الروسي كان يخشى من مغادرة الشيخ محمد شامل إلى تركيا حيث استبقاه في بتروسبورغ عشر سنوات إلى أن تمكن بكفاءة ابنه الجنرال محمدشفى الذي كان جنرالاً في حرس القيصر الخاص من السفر إلى استانبول فاستقبله السلطان عبدالعزيز بحفاوة بالغة ثم غادرها مع ابنيه غازى محمد ومحمد كمال وزوجته زاهيدة وشافانت ولكنه لم يستقر به الحال في استانبول إذ غادرها إلي الحجاز لاداء فريضة الحج وبعدها استقر له المقام في المدينة المنورة حيث توفى بها ودفن في مقبرة البقيع في ٤فبراير ١٨٧١.

وقد حاولت الحكومة الروسية إعادة افراد عائلته إلى روسيا وكلفت ابنه محمد شفى بذلك ولكن لم يرجع احد منهم وقد عمل ابنه غازي محمد في الدولة العثمانية إلى ان وصل إلي رتبة باشا أما ابنه الثالث محمد كمال فقد أقام في المدينة المنورة.

لقد أستمر الشيخ محمد شامل في جهاده أكثر من ثلاثين عاماً وعرف بالعدل والسماحة والتدين وجاهد جهاداً مع قلة اتباعه وضعف عتاده ولكنه بقوة ايمانه وحسن تنظيمه استطاع ان يزلزل كيان الامبراطورية القيصرية فترة من الزمن شهد له الاعداء بالبسالة والحنكة والشجاعة فقد كتب الجنرال فادايف المؤرخ العسكري الروسي يقول:

وكانت حروب القفقاس تشل تحركات قواتنا، إذ لم نستطع ان نرسل إلى قطاع باشا ويقلر الاتسعة آلاف جندي من قواتنا البالغ عددها ٢٨٠ ألف جندي، علماً بأن مصير القفقاس ماكان يتعين إلا بالحرب وان هذا الجيش المؤلف من ٢٨٠ ألف جندي والمزود بكل الامكانات والخبرات الحربية والذي كان في امكانه ان يسحق أي قوة تقف في وجهه من مصر إلى اليابان انخفضت قدرته إلى الصفر بسبب الموقف العدائي الذي وقفه القفقاسيون منه في سبيل حماية حريتهم واستقلالهم.

حيث ان مقاومة الداغستانيين للاستعمار الروسي لم تتوقف، بل استمرت رغم الأعمال الاجرامية التي مارسها الروس ضدهم بالطرد والابادة الى ان سقطت منطقة اخجيبصوا عام ١٨٦٥ ثم تجددت فيما بين ١٨٧٧ – ١٨٧٨ وقد كتب احد المؤرخين الروس عن وضع داغستان بعد الثورة قائلاً:

انتهت المعارك الدموية بنفي الداغستانيين إلى خارج البلاد والقضاء عليهم وتخريب حضارتهم اشد تخريب حيث جفت القنوات والمراعي وخربت الطرق بايدي الروس اما البساتين والحدائق الواسعة فقد اصابها الخراب والدمار إما اثناء المعارك أو اثناء عملية اسكان الروس.

يوميات الزيارة

يوم الثلاثاء ١٣ شعبان ١٤٠٦هـ، ٢٢ابريل ١٩٨٦م

قدمنا إلى حدود داغستان البرية من جمهورية اذربيجان المجاورة وكان يصحبنا جماعة من الأخوة الاذربيين (الاذربيجانيين) على رأسهم رئيس الادارة في جمهورية اذربيجان الشيخ (الله شكر باشا زاده) الذين ظلوا معنا في موكب سيارات حتى الحدود بين اذربيجان وداغستان.

وقد أفردت للرحلة في اذربيجان كتاباً مستقلا يمكن ان تراجعه إذا اردت.

ومعنى الوصول إلى حدود داغستان أننا وصلنا إلي حدود جمهورية روسيا الاتحادية من جهة الجنوب لأن بلاد الداغستان هي جمهورية ذات حكم ذاتي داخل نطاق جمهورية روسيا الاتحادية الكبيرة. مع ان بلاد الروس الأصلاء بعيدة جداً عن داغستان جهة الشمال ولكن جمهورية روسيا واسعة الحقت بها جمهوريات عديدة منها جمهوريات مسلمة مثل داغستان هذه ومثل جمهورية الشيشان والانقوش. وجمهورية التتار (تتارستان) وجمهورية البشكير (بشقر دز ستان) إلى جانب اقاليم أخرى للمسلمين الحقت بجمهورية روسيا الاتحادية هذه بعضها في أوربا وبعضها في حدود آسيا مع أوروبا.

على الحدود بين اذربيجان وداغستان :

وقفنا عند جسر فوق نهر نزر المياه، بل لاتكاد توجد فيه مياه تستحق الذكر يسمى نهر صامور يؤلف واديه الحدودبينهما من هذه الجهة فرأينا علم الجمهورية التي وصلنا إليها وهي جمهورية داغستان السوفيتية ذات الحكم الذاتي يرفرف ووجدنا الأهم من ذلك وهم طائفة من الاخوة الكرام اهل داغستان على رأسهم الشيخ محمود بن ذي القرنين كيكي رئيس الادارة الدينية لمسلمي شمال (القفقاس) ودرويش بيك سلطان احمد وكيل فرع شئون الأديان في الجمهورية ورئيس بلدية دربند فلاديمير فسلو فيتش نواشكو، وهو غير مسلم ومظهره مظهر

الأوكرانيين أو الروس الشماليين، ومع الشيخ ائمة المساجد وعدد من طلبة العلم الذين تخرج بعضهم من معهد الامام البخاري في طشقند وبعضهم تعلم القرآن ومبادئ العربية في داغستان نفسها وهي كانت مشهورة بمحبة اهلها تعلم العربية حتى بلغنا ونحن في بلادنا ان بعض الآباء يشترطون فيمن يتقدمون للزواج من بناتهم ان يكونوا يعرفون العربية وذكر لنا ان العربية شائعة في بلاد الداغستان اكثر من شيوعها في البلدان التي تقع عنها جنوباً أي اقرب إلى البلدان العربية بكثير مثل بلاد الجمهورية التركية.

وفي هذه النقطة من الحدود التي تفصل بين جمهوريتي اذربيجان وداغستان السوفيتية وهذه تسميات ليس لها معنى إلا فيما يتعلق بالتقسيمات الادارية وليس بنوع الادارة جرى توديع الاخوة المرافقين من أهل اذربيجان وعلى رأسهم الشيخ المكرم (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية لما وراء (القفقاس) كما يسمونه وهي بالنسبة إلى بلادنا مادون (القفقاس) وكذلك الأخ المكرم (صابر حسين) وبقية المرافقين من ائمة المساجد واهل الدين.

وعادوا بموكب السيارات المؤلف من ثمان إلى باكو لأن الأخوة أهل الداغستان أعدوا موكب طويلاً من السيارات زادوا فيه شيئًا رمزيًا لم يكن موجوداً في موكب السيارات في أوزبكستان ولافي اذربيجان وهو انهم كتبوا على سيارات الموكب أرقامًا بالعربية أو الروسية ليعرف منها ذلك أن السيارات رقم (١) مخصصة لرئيس الوفد ورقم (٢) لمن يليه وهكذا.

وكانت ساعة وداع اهل اذربيجان التي هي ساعة لقاء أهل داغستان جميلة مؤثرة التقط القوم خلالها الصور التذكارية.

مع الإخوة المودعين والمستقبلين في الحدود بين داغستان وأذربيجان

إلى بلاد الداغستان :

ولو قلت إلى بلاد الجبال لكان هذا صحيحاً سواء من حيث الواقع ومن حيث ترجمة معنى الاسم إلى العربية لأن داغستان واقعة في جبال (القفج) – القفقاس – ومعنى اسمها أيضاً: بلاد الجبال وسار الموكب طويلاً أطول من الموكب الذي قدم معنا لأن بعض ائمة المساجد أو الذين لديهم سيارات خاصة بهم او للدوائر التي يعملون بها قد أحضروا سياراتهم فكان الموكب مؤلفاً من ثلاث عشرة سيارة يتبع بعضها بعضاً.

وكان بعض هؤلاء الاخوة من أهل داغستان المشهورة بحبها للإسلام والعروبة يسلمون وهم لايكادون يصدقون أعينهم بأنهم رأوا إخوة لهم من بلاد الحرمين الشريفين لأول مرة.

هل أنا من داغستان؟

سألني عدد من الاخوة المستقبلين قبل سير السيارات سؤالاً وجدتهم قد اهتموا به وهو ما إذا كنت من بلاد داغستان؟

وقد أجبتهم بأنني اتشرف بأن أكون من أهل داغستان المشهورين بقوة اسلامهم وتمسكهم بدينهم وحرصهم على صيانة عقيدة اهل السنة والجماعة ولكنني لا اعرف أن أصلي يعود إلي هذه البلاد.

فقالوا : ان الداعي لهذا السؤال انه يوجد في بلادنا بلدة وبعضهم قال قرية اسمها (عبودي) وان نسبة الواحد من اهلها هي (العبودي) وكنا قد عرفنا ان جماعة منها سافرت قبل مائة سنة وبعضهم قبل ثمانين سنة إلي جهة الحجاز للحج والعمرة ولم يعودوا كما هي عادة بعض الداغستانيين الذين لايزالون موجودين ومعروفين في الحجاز فظننناك منهم.

فقلت لهم : إنني وان لم اعرف ان نسبي يتصل بسبب اليكم فان الأهم من ذلك هو الروح والعواطف التي هي بالفعل روحكم وعواطفكم لأن الدين الإسلامي الحنيف قد وحد بين المسلمين في عواطفهم الدينية حتى جعلهم بمثابة الجسد الواحد الذي له عدة أعضاء كما في الحديث الصحيح: مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر... وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «لايؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه مايحب لنفسه....».

ركب معي الشيخ المكوم (محمود بن ذي القرنين كيكي) رئيس الإدارة الدينية لمسلمي شمال القفقاس في السيارة السوداء الرسمية التي يكون فيها كما في التي قبلها صف من الكراسي الصغيرة التي تطوي وتنشر عند الحاجة للركوب عليها من أجل المرافقين فكانت فرصة وجوده وهو الخبير بهذه المنطقة الداغستانية بل هذا الوطن المهم من اوطان المسلمين ثمينة، إذ اخذت استمع إلى حديثه بل إلى كل مايقوله عن هذه البلاد الداغستانية ومن ذلك قوله:

إن في جمهوريتنا جمهورية داغستان ثلاثًا وثلاثين قومية كلهم مسلمون وفيها ثلاث وثلاثون لغة لايعرف اهل كل لغة لغة الأخرى وأهلها مسلمون متمسكون بإسلامهم مشهورون بذلك منذ القديم ومن أشهر القوميات المسلمة فيها (الأور) الأقوياء في دينهم. . .

هذا والموكب يمضي في سيره على الطريق الازقلتية المتجهة شمالاً ومازالت جبال (القفج) – القفقاس – تماشينا من جهة الغرب ونحن في سفوحها غير الوعرة.

وقد كثرت أشجار العنب المعتني بها في هذه المنطقة، بل كادت تكون الأشجار الرئيسية المغروسة وقلت للشيخ محمود كيكي: ماذا يفعل أهل العنب وقد حرمت الحكومة الإكثار من الخمر وحاربت شربها؟ فقال: أكثر المزارع للدولة ونحن المسلمين نجعله زبيبًا نخزنه ويفيدنا غذاء.

مع باب الأبواب :

لا أدري كيف أصف شعوري وأنا أقبل على باب الأبواب الذي سماه اسلافنا العرب بهذا الاسم لمناعته وصعوبة الدخول منه، ولم يراعوا الترجمة الحرفية لاسمه وهي (دربند) التي معناها الحرفي: الباب المغلق ومعناها الفقهي: الباب الذي يستحيل الدخول منه عنوة.

ولكن الإسلام فتحه فتح قلوب لافتح حروب لأن فتوحات الحروب تزول بزوال الفاتحين وأما هذا الباب الذي كان مغلقًا على غير المسلمين فإن المسلمين فتحوه ولم يبالوا لفتحه بالألوف الذين استشهدوا منهم في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع راية التوحيد على هذه البلاد المنيعة في جبال القفج (القفقاس) .

وقال الأخوة المرافقون ونحن نقبل على بلدة لاتبدو كبيرة :

هذه دربند :

منظر لمدينة دربند

لم يعرفوا أو ربما لم يريدوا ان يذكروا التسمية التاريخية الإسلامية (باب الأبواب).

وتبادر إلى ذهني الزهو بالدخول مع الباب المغلق حسب الترجمة الحرفية لاسمها القديم الذي لاتزال تعرف به أو (باب الأبواب) الذي لاتزال ذكرى المعركة بل الملحمة التي خاضها المسلمون فيه حية تؤثر ولكنني عدت إلى التفكير في الأمر فاحتقرت نفسي واحتقرت صحبي أيضًا - وارجوا أن يعذروني في ذلك - لأنهم إذا قارنوا دخولنا الآن إلى (دربند) بدخول أسلافنا العرب الفاتحين لها عرفوا الفرق بين الدخولين فوافقوني على ذلك وبما زادوا علي شعوري شعوراً

آخر بضآلة أقدارنا نحن المسلمين في هذه العهود التي صيرناها سوداء مظلمة بسبب تقاعسنا عن الجهاد وركوننا إلى الدعة والرفاه، وتضييعنا لأمر الله تعالى في العمل للدنيا والآخرة.

هذه هي حالة اكثرنا نحن العرب المسلمين، وان لم تكن حالة الجميع غير ان الحكم للأغلب والعقوبة إذا نزلت عمت كما في الحديث أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم بما معناه كيف يعم الله بالعذاب القوم وفيهم الصالح والطالح؟ فقال إذا كثر الفساد عمت العقوبة الناس، ثم يبعثون على قدر أعمالهم ويروي: ثم يبعثون على نياتهم.

إننا ندخل الآن إلى مدينة (دربند) بدعوة من إخواننا المسلمين رؤساء الادارات الدينية في الإتحاد السوفيتي ولكننا نعلم أنهم ليست كلمتهم هي الفصل في هذا الموضوع فالحكومة السوفييتية لولا أنها رأت أن حضور وفدنا إلى الإتحاد السوفيتي مفيد لها أو على الأقل غير مهدد لسياستها الشيوعية الملحدة التي تسير عليها لما سمحت لنا بالحضور.

ونحن نتمنى أن الإتحاد السوفييتي وغيره من البلدان التي يوجد فيها مسلمون يصبحون يخشوننا لأننا نستطيع أن نجعل المسلمين لديهم يطالبون بحقوقهم في الإستقلال والسيادة على أرضهم وتقرير مصيرهم ومصير أولادهم من بعدهم وفق مايريد لهم الإسلام غير أن الأمنية شئ والواقع شئ آخر ولذلك نعلل أنفسنا بالآية الكريمة: ﴿لايكلف الله نفساً إلا وسعها﴾.

ومن الغريب أن اسلافنا العرب قد سموا (دربند) باب الأبواب لما سبق وسموها أيضاً بالباب وهم لايعرفون في ذلك الوقت أنها كما أنها باب الدخول إلى القبج – القفقاس – الحصينة فإنها أيضاً نعتبر بابا للقارة الأوروبية فنحن عندما دخلنا هنا كنا من الناحية الجغرافية الشكلية قد دخلنا منها إلى القارة الأوروبية وفارقنا القارة الآسيوية وان كنا في الجميع داخل الاتحاد السوفييتي.

وصلنا مدينة دربند وقصدنا أول مرة بيت الأخ الكريم نجم الدين بن عبدالله الذين يسمونه هنا المتولي ويريدون به متولي أمور المسجد.

وكان أول مافعلوه عند دخول بيته أن قدموا خروفًا وذبحوه في الشارع عند باب البيت وسط جمهور من الحاضرين المنتظرين انضم إليهم جمهور من المتطفلين والعابرين من رجال ونساء وأطفال.

وذبح الخروف عندهم فيما ذكروه لنا أمر مهم جدًا فهو دليل على اكرام الضيف وهو أيضًا يدل الذين لايعلمون منزلة الضيف في نفوس مضيفيه على أنه قد حل عندهم ضيف ذو منزلة رفيعة.

وطلبوا مني أن أمسك باحدي قوائم الخروف لأن هذا من مقومات إتمام الإكرام علي عادتهم.

وذبحوا الخروف ووضعوا تحت مذبحه إناء يتلقى الدم لئلا يتسخ منه رصيف الشارع الذي كان نظيفًا.

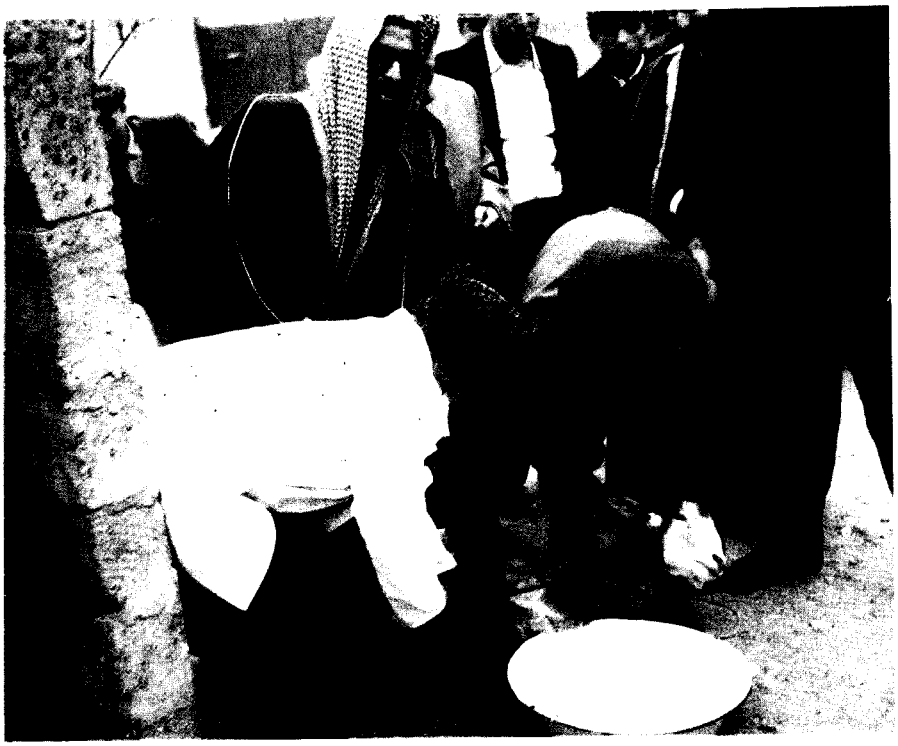

ذبح الخروف أمام الضيوف تكريمًا لهم في دربند

وقال أحد الإخوة ممازحًا وكان يشعر بالجوع: متى ينضج الخروف فنتغدى؟ فرد عليه أحدهم إن ذبح الخروف هذا مظهر من مظاهر الإكرام وسوف يذهب لحمه إلى بيوت المسلمين يفرق فيها أما غداؤكم فإنه جاهز الآن.

مائدة دربند :

صعدنا إلى غرفة مستطيلة من الطابق الثاني في بيت الأخ (نجم الدين بن عبدالله) رئيس جمعية المسجد ويسمونه متولي المسجد كما سبق فوجدنا فيها مائدة مستطيلة حافلة بما لذ وطاب من مقدمات ومعها زهريات صغيرة قد ثبتوا فيها زهورًا يانعة طرية قطفوها لتوهم من منبتها، وحالًا اكتمل جلوس القوم نحن ومرافقونا وعددنا حوالي خمسة عشر ومعنا من وجهاء القوم وكبراء المسلمين من أهل دربند من اكتملت بجلوسهم مقاعد المائدة بدأوا بالمقدمات ثم جاءت أواني الطعام الحار أولها نوع من الحساء وهو الشربة بلغة عوام الكتاب وهو خاص بهم رأيت مايشبهه عند اخوتهم الأوزبكيين في طشقند وهم الذين نسيمهم في بلادنا بالبخارية – جمع بخاري – وهم أهل تركستان الغربية وكنت رأيتها بل استطبتها عند إخوانهم في تركستان الشرقية التي تحتلها الصين الشيوعية.

على مائدة الأخ نجم الدين بن عبدالله متولي مسجد دربند

وكان غداء مناسبًا لأنه كانت معه الإستراحة من هذا السفر البري الذي لم نتوقف فيه إلا في قباء.

المؤلف يتكلم واقفًا في منزل نجم الدين بن عبدالله

أول مسجد في الاتحاد السوفييتي :

هكذا قالوا ونحن نتهيأ للذهاب إلى مسجد دربند : إنه أول مسجد بني في الإتحاد السوفييتي فقلت في نفسي: إنه لو كان الإسلام عزيزًا في نفوس أهله لاحترموا أوامره ونواهيه ولكان لهم بذلك العز والنصر والتمكين بحيث لاتذوب بلدانهم وأوطانهم في الإتحاد السوفييتي.

ذهب الموكب الكثير السيارات إلى مسجد (دربند) والقوم يحدثوننا عنه بأنه أقدم المساجد في المنطقة ولا أشك بأن الأمر ليس كذلك لأنه بني حسبما ذكروه في عام ١١٥للهجرة.

وذكروا أن ذلك كان في زمن خلافة عبد الملك بن مروان ولاشك في أن مناطق ممايسمى بالإتحاد السوفييتي قد دخلها الإسلام قبل هذا التاريخ مثل منطقة جنوب اذربيجان ومثل منطقة بخارى وسمرقند ولايعقل ألا تبنى فيها مساجد عندما يستقر فيها الإسلام ويستوطنها المسلمون، ولكن على أية حال كان الأمر فإن تاريخ بنائه وهو ١١٥ للهجرة أي منذ ألف وثلثمائة سنة إلا قليلاً هو تاريخ مبكر.

وصلنا المنطقة التي يقع فيها المسجد من المدينة وهي حي قديم جداً ربما كان بني أول الأمر قبل البعثة النبوية ويظهر ذلك واضحاً من طراز بيوته المبنية بالحجارة وأرضه المبلطة بالحجارة الكبيرة المهذبة وازقته التي لاتكاد تتسع للسيارة الواحدة.

وزاد من الشعور بقدمه منظر بعض المسلمات من المتوسطات في السن ومن المسنات وعليهن الملابس السابغة وقد سترن رؤسهن بالمناديل الكبيرة التي لا يظهر منها شئ من الشعر.

ولضيق المكان توقف الموكب عند المسجد ولكن بعض السيارات وقفت في منطقة خلفه ولم يوسعوا هذه الأزقة القديمة وحسنا فعلوا لأنها ذات قيمة أثرية كبيرة.

لم يكن الوقت وقت صلاة لذلك اكتفينا بالإطلاع على المسجد الذي هو قديم المظهر بالفعل وكان معنا من المسلمين البارزين إمام المسجد (اسباي قاضي) فذكروا ان التاريخ المحفوظ للمسجد أنه جدد بناؤه في عام ١٧٧٧م ثم رمم عام ١٩٤٠م على ماهو عليه الآن وقد كتب عليه اسمه (مسجد دربند جمعة) أي مسجد الجمعة في دربند، والمسجد مفروش بسجاد سميك كثير وذلك لشدة البرد في الشتاء مما يحتاج إلى وقاية المصلين برودة الأرض.

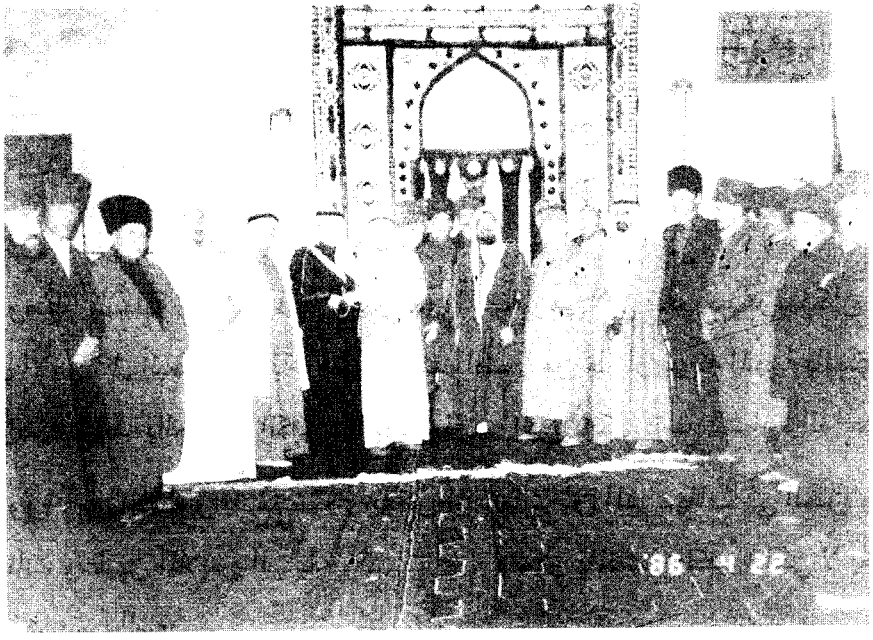

وفد الرابطة في داخل مسجد دربند

وهو ذو عقود غير عالية يركبها السقف الذي فيه فوق المحراب قبة عالية شبيهة بالقباب العربية التي هي قريبة من الطراز التركي في بناء المساجد وذكروا أن بناء هذه القبة من الآجر معقوداً عقداً محكماً.

ولمناسبة الفرش وأثاث المسجد الذي يبدو متكاملاً أخبرنا جماعة المسجد أنهم لايشكون من قلة النقود اللازمة لفرشه أو دفع المصاريف المتكررة له وذلك لأن المسلمين لايقصرون في دفع التبرعات له.

السنة والشيعة :

الداغستانيون من السنيين المحافظين على السنة والجماعة غير أهل دربند هذه فسكانها من الشيعة الذين لهم الأكثرية في جمهورية أذربيجان المجاورة وفيهم من أهل السنة.

وقد ذكر لنا بعض الإخوة ان هذا المسجد وهو الوحيد في المدينة كان يصلي فيه أهل السنة وأهل الشيعة صلاة الجمعة بالتناوب.

إلا أن الشيخ محمود كيكي مدير الإدارة الدينية هنا قال لنا والجميع يسمعون إن أهل السنة والشيعة كلهم يصلون في هذا المسجد.

وطبيعي أنه قد يكون في قوله بعض المجاملة التي يقتضيها منصبه بحكم كونه مرجعا للمسلمين من أهل السنة وهم الأغلبية الساحقة في هذه الجمهورية وهو منهم ولهذه الأقلية الشيعية مثلما أن الشيخ (الله شكر باشا زاده) يكون مرجعاً للأكثرية من الشيعة الذين هو منهم وللأقلية العددية من أهل السنة في جمهورية اذربيجان التي غادرناها ظهر هذا اليوم.

وقال الشيخ رئيس الإدارة الدينية ويسمونه هنا اختصاراً بالمفتي أيضاً وهو يعلق على وفرة النقود التي يتبرع بها المسلمون للمسجد: إنها تزيد عن حاجته فنرسلها إلى مجلس السلام والصداقة في الإتحاد السوفييتي.

الخروج من الباب الداخلي لجامع دربند

وطبيعي أن هذا المجلس ليس له علاقات بالإسلام، ولكن المسلمين يرسلون ماتوفر عندهم من الأموال التي يتبرع بها المسلمون إظهاراً لمحبتهم للسلام ومجاملة للقائمين علي المجلس ولم يقل أحد منهم إن الحكومة تطلب منهم ذلك وان كنت لا استبعده.

الشجرة المعمرة :

كنا نطلع علي فناء مكشوف للمسجد في حواشيه غرف تابعة له قالوا إن بعضها كان يستعمل في القديم مدرسة دينية غير أنها معطلة الآن ولاتوجد مدارس دينية في هذه البلاد مثل أكثر بلدان المسلمين في الإتحاد السوفيتي إذْ لاتوجد في طول المناطق الإسلامية فيه وعرضها غير مدرستين أحد اهما مدرسة (مير عرب) في مدينة بخاري والثانية معهد الإمام البخاري في طشقند والأولى عدد طلابها خمسون طالباً والثاني عدد طلابه سبعون طالباً كما اخبرنا مديره وقال: من بينهم أربعة من افغانستان واثنان من مسلمي بلغاريا.

وفي ساحة المسجد المكشوفة أشجار ضخمة معمرة منها واحدة كتبوا عليها لوحة تبين ماخفي من أمرها ومن ذلك ان عمرها يبلغ سبعمائة سنة وهي الآن مسجلة في دائرة الآثار التاريخية مع أنها لاتزال حية نامية ولكن دائرة الآثار تعتني بها وتقوم على شأنها لأهميتها التاريخية.

وهي من الشجر المعروف بالعربية بـ (الدلب) وتسمى عندهم (بلاتان) فالتقطنا صوراً تذكارية وانتهزنا الفرصة لتصوير الإخوة المسلمين والمرافقين عند هذه الشجرة المعمرة.

كافر يخطب في المسجد :

وفي فناء المسجد أيضاً وقف رئيس بلدية دربند وهو كافر بمعنى أنه ليس من أبناء المسلمين وإلاّ فإن أبناء المسلمين الأعضاء في الحزب الشيوعي الذي سياسته هي الالحاد هم لايحضرون الجمعة والجماعة بل لايظهرون حتى بالقول بأنهم مسلمون أو أنهم على دين آبائهم غير ان الناس هنا قد درجوا على عدهم من

المسلمين علي اعتبار كونهم من أبناء المسلمين ولما شاع عندهم من أن بعضهم يظهر اعتناق الشيوعية والماركسية ولكنه يبطن الدين ويكره الإلحاد وهو يفعل ذلك حفاظًا على وظيفته إما ابتغاه للعاجل، وإيثارًا للدنيا على الدين، أو إنه يفعل ذلك كما حكي لنا الإخوة المسلمون من أجل أن يتمكن من نفع إخوته المسلمين عن طريق مركزه المرموق في الإدارة.

قالوا : وهذا الصنف نادر جدًا وأكثر أبناء المسلمين من الصنفين الأولين الذين هما من يعتنق الشيوعية ويكفر بالإسلام عن إصرار وتصميم فهو ممن طبع الله على قلوبهم ومن الذين يفعلون ذلك من أجل المنصب والجاه.

وعلى أية حال فإنني لاأذكر ان احدًا من رجال الإدارة من أبناء المسلمين في الإتحاد السوفيتي دخل معنا مكان الصلاة في المسجد وإن كان بعضهم يقف خارج المسجد ويترك مرافقتنا في المسجد لإمام المسجد ورئيس الجمعية التي تحافظ عليه الذي يسمونه المتولي وبعضهم يدخل إلى الفناء الخارجي الذي هو الساحة الخارجية المكشوفة للمسجد، وكل المساجد في هذه البلاد ذات ساحات مكشوفة واسعة وملحقات من الغرف عديدة لأنها كلها أو اكثرها كانت مساجد قديمة بناها المسلمون أزمان عزهم ووفرة النقود لديهم في أزمان الحرية الاقتصادية، وقبل استيلاء الشيوعيين على الحكم في البلاد.

قام رئيس البلدية خطيبًا في فناء المسجد ليشرح لنا أمر هذه المدينة كما كان يفعل زملاءه عندما كما نزورهم في مكاتبهم، وكما هي العادة المتبعة عندهم عندما يزورهم ضيوف أجانب.

قال رئيس البلدية (فلاد يمير فسلوا فيتش): إن مدينة دربند هذه هي قديمة الإنشاء قد أسست منذ ألف وسبعمائة ستة.

وعدد سكانها في الوقت الحاضر مائة ألف نسمة، وفيها عشرون مدرسة ثانوية وعشر مؤسسات ثقافية وسكانها يتألفون من اربعين قومية عرقية مختلفة، وفيها أول مسجد أسس في الإتحاد السوفييتي.

ثم ذكر معلومات أخري من جنس هذه المعلومات التي لانستطيع أن نتأكد منها لذلك لاننفي صحتها ولا نثبت ذلك ولايستطيع أحد من المرافقين وحتى السكان أن يفعل ذلك ولو خفية لأنه يخشى أن يكشف أمره فينال العقاب الصارم.

صورة تذكارية في فناء المسجد في دربند ورئيس البلدية على يمين المؤلف

وكان رئيس البلدية يتكلم بالروسية ويترجم الحديث فيما بيننا وبينه من الروسية إلى العربية وبالعكس الأخ (ابوالحسن محمد بشير) وهو إمام وخطيب في جامع مدينة (تصيفون).

أما بقية القوم فأن الكلام معهم كان بالعربية لأن أغلبهم من أئمة المساجد ومع الذين لايحسنون العربية مثل متولي المسجد الأخ (نجم الدين بن عبدالله) باللغة المحلية التي هي عدة لغات ومنها عدة لهجات لأقوام يرجعون في أصلهم البعيد إلي الجنس التركي وعماد لغاتهم من التركية القديمة التي لاتزال أكثر مفرداتها مستعملة الآن في تركستان الشرقية الواقعة في الصين بمقاطعة (سينكيانج).

إلي الباب المغلق :

توجه الموكب بعد ذلك إلى رؤية السور العظيم الذي سمى المكان من اجله بالفارسية الباب المغلق (دربند) وسماه العرب الباب، أو باب الأبواب.

وهو جدير بأن يرى بل جدير بأن نرحل إليه نحن العرب إذا كان ذلك للإتعاظ والاقتداء بالأسلاف في الجهاد في سبيل الله وركوب الصعاب في ذلك والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله.

مررنا مع منطقة جبلية بل حي جبلي في مدينة دربند التي بنيت كلها في الجبال ولكن أحياء من احيائها الحديثة نزل بها بانوها إلي أماكن منخفضة وجميع البناء في هذا الحي القديم الذي نمر به الآن هو من الحجارة وأزقته من الدرج المبني بالحجارة أيضاً، وفوق الأزقة في بعض الأماكن عقود من الحجارة لضيق الأزقة وعدم وجود مواد البناء القوية ماعدا الحجارة في القديم.

مقبرة الشهداء :

ومررنا بمقبرة الشهداء الأبطال الذين كانوا أول من قدموا انفسهم من اجل إعلاء كلمة الله، وفتح هذه الأبواب المغلقة لكي تدخل منها كلمة الاخلاص (لاإله إلا الله، محمد رسول الله).

وهم الشهداء حقًا وصدقًا وليسوا بمن يسميهم بعض الساسة المحدثين الملحدين بالشهداء لكونهم دافعوا عن مبادئ من مبادئ الأحزاب أو ناصروا زعيماً من الزعماء.

ذكروا أن هذه المقبرة تضم الأبطال الأوائل من الجيش الإسلامي الذين قتلوا دون هذا الباب المغلق الذي هو قلعة مغلقة بالفعل تمتد منها وحولها أسوار عظيمة من الصخر المحكم إلي مسافات طويلة.

لكن استشهاد هؤلاء الشهداء لم يمنع إخوانهم من التقدم في أثرهم لفتح هذه الأبواب المغلقة واقتحام الأسوار الصخرية المنيعة فساروا خلف من سبقوهم وصدقوا النية في الجهاد ففتح الله لهم الأبواب.

فتح قلوب لا فتح حروب :

وفتح الله تعالى بهم البلاد فتح قلوب لا فتح حروب، اذْ لو كان الفتح المبين الذي حصل على ايديهم مجرد فتح أسوار لقوم غزاة لأغلقت تلك الأسوار بعد خروجهم أو على الأقل بعد ذهابهم ولكنه كان فتح قلوب استقر في افئدة الناس وضمائرهم واستمر حتي الآن وقد مضت عليه ثلاثة عشر قرنًا رغم ما مر به من جهود الطمس والإزالة على أيد القيصرية الروسية المتعصبة لمذهبها المسيحي الأثوذكسي ثم على أيدي طغاة الإلحاد وزبانيته المتعصبين للاشتراكية الشيوعية التي تقوم علي الإلحاد ومنع العباد من عبادة رب العباد.

وقد بقيت المبادئ التي جاء هؤلاء الفاتحون من أجلها خالدة على الدهر وسوف تبقى إلى ماشاء الله أن تبقى وهؤلاء هم أهل هذه البلاد من الدربنديين والإخوة الداغستانيين الذين لم يبغوا بالإسلام بديلاً ولاعن دين الله تحويلاً، تحمل أسلافهم مشعل الإسلام فتسلمه لأخلافهم ولله الحمد.

ذكروا لنا أن من بين الشهداء المدفونين في هذه المقبرة سلمان بن ربيعة واخوه عبدالرحمن بن ربيعة وسراقة بن عمرو.

حديث الدليل :

مدينة دربند كما ترى من القلعة

صعد الموكب إلى الجبل المطل عل مدينة دربند على طريق لا بأس به إلى أن وقف في ميدان صخري قد حفت به أفاريز من الصخور المنقوشة على هيئة حواجز شرفات المنازل وبدت منه مدينة دربند واضحة أكثر المناظر فيها وضوحًا مسجدها العتيد الذي يتطاول عمره إلى مايقرب من ثلاثة عشر قرنًا، وبقايا مسجد قديم لاتزال أعمدته منتصبة كأنها الشهود على مجد زال، وعز أضاعه أهله فأضاعوا أنفسهم، وهذا المسجد المتهدم هو خارج العمارة في المدينة فوقها في الجبل وقال بعض المرافقين : إن هذا المبني كان مدرسة قديمة ولكنه خرب لأمر من الأمور.

وقدم رئيس البلدية والمرافقون شاباً ذكياً قالوا إنه الدليل العارف بأمر هذه الآثار القديمة وسارع الأخوة المسلمون يقولون: وهو يعرف العربية أيضاً.

وتقدم الشاب وقال بالعربية : اسمي (فرحات علي) وأنا أعرف العربية ولكن ليس كثيراً، قلت له أين تعلمت العربية؟ فقال: في هذه البلاد ومن الكتب فلم استطع أن أجد مدرسة أتعلم فيها.

والحقيقة أنه يصح أن يقال: إنه يعرف العربية سواء أتكلم بها أو استمع إليها ولكن المشكلة لديه أنه لم ينل التمرين الكافي على اللغة فكان يستفسرعن معنى بعض ما تقوله فإذا أعيد عليه بلفظ أكثر بطأ فهمه ولذلك كان يحدثنا في بعض الأحيان بالانكليزية، قال الدليل (فرحات علي): ان دربند هذه تقع داخل سور عظيم هو في الحقيقة سوران علي هيئة جدارين أحدهما جنوبي والآخر شمالي وبينهما من الفراغ اربعمائة متر ويمتد كل جدار اربعين كيلو متراً من بحر الخزر (قزوين) الذي تقع مدينة دربند على ساحله حتى الأماكن الوعرة في جبال (القفقاس) التي يصعب اختراقها.

قال : وقد مكن هذا سكانها من حماية انفسهم ضد الأعداء الأقوياء لأنه لايمكنهم اختراق هذا السور فهو جدار منيع عال من حجارة محكمة ضخمة يصعب هدمها أو احداث خلل فيها حتي في أيام الحرب.

كما بنوا قلعة حصينة علي بعد كيلو متر جهة الغرب من المدينة وهي التي نشاهدها الآن بجانبنا وكانت في مكان أعلى من المكان الذي كنا واقفين فيه.

فوق قلعة دربند وتبدو المدينة على بعد

وتحدث عن قلعة المدينة هذه فقال: إنها بنيت خلال مائة وثلاثين سنة من عام ٤٣٧م إلي عام ٥٦٦م .

وقال : لقد فتحها مسلمة بن عبدالملك عام ٧٣٤م وصارت بلاداً إسلامية منذ ذلك التاريخ.

وقد استولى عليها قيصر الروس بطرس الأول سنة ١٧٢٠ميلادية.

وقال: ان هذا الشكل الذي عليه القلعة هو من القرن الثاني عشر الميلادي فلم يجر فيها أ ي تعديل أو تغيير منذ ذلك التاريخ.

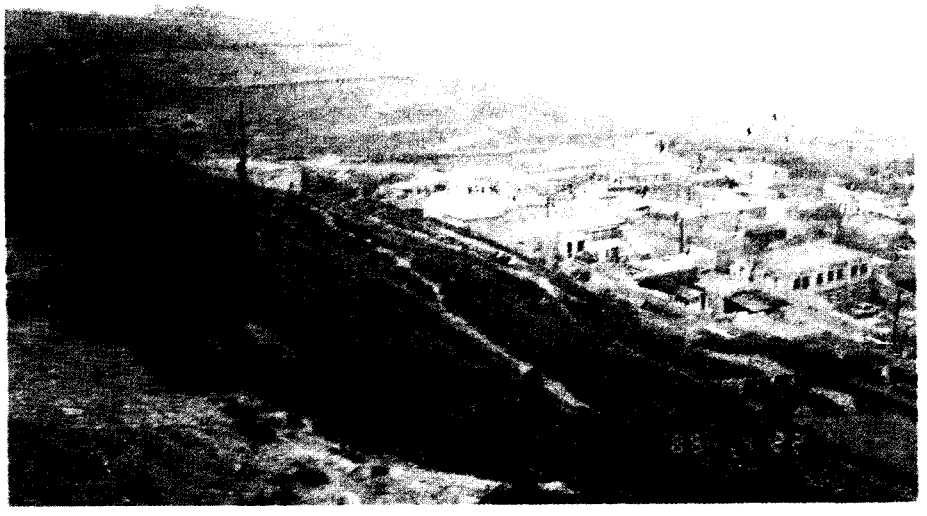

جانبًا من مدينة دربند كما ترى من مكان عال

وأشار إلى المقبرة القديمة وقال : هذه مقبرة الشهداء وهم اربعون شهيدًا قتلوا في معركة بين العرب والخزر والعجب في الأمر كما قال – أن الخزر قبل إسلامهم اعتقدوا فيهم الصلاح فأسموهم الشهداء وكانوا يعظمون شأنهم ويصونون قبورهم بل كانوا يتبركون بهم رغم عدم إسلامهم لما رأوه من صلاحهم، وصدق نياتهم.

ثم جلنا مع المرافقين في بعض أجزاء القلعة وتوابعها مما يلي الجبل وحدثونا بشئ طريف عندما رأينا مجرى صخريًا للماء فذكروا أن العرب عندما قتحموا السور والسد العظيم امتنعت عليهم هذه القلعة فترة من الزمن عرفوا أثناءها سرًا لم يكونوا يعرفونه من قبل وهو أن الماء يأتي للقلعة من مجرى سري لينبوع ماء في الجبل ولم يكن بإمكانهم أن يوقفوا الماء أو كانوا يستطيعون ذلك ولكنهم فعلوا

مافعلوه نكاية بأهل القلعة وذلك أنهم ذبحوا أربعين خروفًا في مجرى الماء فأكلوا لحومها، وجرت دماؤها مع المجرى فكاد أهل القلعة يموتون عطشًا ثم كرر العرب فعلتهم فسلموا.

هكذا قالوا والله أعلم بالحقيقة.

خلف الدليل داخل قلعة دربند

أما القلعة فإنها منيعة حقًا ويكفي أن تعرف أن بابها في واد سحيق وفوقه عدة أبراج بحيث لايستطاع الوصول إليه من الجبل ولا من السفح إلا بواسطة ممر ضيق يزيله أهل القلعة أثناء الحصار.

وأما حيطانها وأبراجها المستقلة فحدث ولاحرج عن قوتها ومناعتها وكلها من الصخر القوي المبني بعناية ولكنها عجزت عن مقاومة جيش الإسلام الذي اقتحمها بقوة الإيمان، وبالفداء والتضحية بالنفس والنفيس.

أبراج قلعة دربند

والتقط الرفاق من الصور ما شاء لهم الوقت أو الرغبة أن يلتقطوا وكانت البعثة الإعلامية المرافقة للوفد وفيهم مصورون للتلفاز ومصورون للصحف قد انتهزوا الفرصة وأمعنوا في التصوير.

ماذا يقول التاريخ الإسلامي ؟

هذه المعلومات التي سمعناها الآن عن القلعة وفتحها هي من جانب واحد هو الجانب الرسمي السوفييتي فلنق نظرة علي مايقوله اسلافنا عن (دربند) هذه وعن باب الأبواب وعن معركة باب الأبواب المجيدة في تاريخ الإسلام لننقل – باختصار – خلاصة تعطي فكرة مجملة عن ذلك تاركين التفصيلات لأماكن أخرى مناسبة أكثر من مناسبتها لهذا الكتاب.

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (قَبْق) بفتح أوله وسكون ثانيه، وآخره أيضًا قاف: كلمه اعجمية، وهو جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان، وهو آخر حدود أرمينية.

قال ابن الفقيه: وجبل القَبْقِ فيه اثنان وسبعون لساناً لايعرف كل إنسانٍ لغة صاحبه الإ بترجمان، ويقال إنه طوله خمسمائة فرسخ وهو متصل ببلاد الروم إلي حد الخزر واللان.

ويقال: إن هذا الجبل هو جبل العرج الذي بين مكة والمدينة، يمتد إلى الشام حتى يصل بلُبْنان من أرض حمص وسنير في دمشق، ويمضي فيتصل بجبال إنطاكية وسميساط، ويسمى هناك اللكام ثم يمتد إلي ملطية وشمشاط وقاليقلا إلى بحر الخزر، وفيه (باب الأبواب) وهناك يسمى (القَبْقِ).

قال البحتري :

أتسلى عن الخطوب وآسي	**لَمَحل من آل ساسان، دَرْسِ**
ذكرتنيهم الخطوب التوالي	**ولقد تُذْكرُ الخطوبُ وتنسي**
وهم خافظون في ظل عال	**مُشْرف يُحْسر العيونَ ويخسي**
مُغلقٍ بابه على جبل (القَبْق)	**الى دارتي خلاطٍ ومَكسِ**

قال ياقوت: وفي شعر بعضهم (القَبْج) بالجيم وهو في شعر سراقة بن عمرو، وذكر باب الأبواب.

أقول : في هذا الكلام أمور مهمة جديرة بالإيضاح وأولها ان جبال القَبْق هي القوقاز أو القفقاس أو القفقاز كما يكتبها المثقفون من بني قومنا الذين اخذوا اسمها من الأجانب لجهلهم باسمها العربي القديم وكان أولى بهم ان يرجعوا إلى كتب الثقافة العربية الأصيلة فيأخذوا منها اسمها القديم الذي لو لم يكن في الحرص على تسميتها به الإ وصل الماضي الثقافي بالحاضر. ولايمنعهم من ذلك ان أسلافنا العظام كانوا قد وصلوا إلى تلك البلاد على الدواب من خيل وابل وبغال، وان اخلافهم لم يصلوا إليها أو لم يريدوا ذلك حتى في عصر القطارات والسيارات والطائرات، والذين وصلوها منهم بلغ بهم الكسل والجهل بماضيهم أن يعجزوا أو يتعاجزوا عن العثور على اسمها القديم.

وثانيها كثرة اللغات في بلاد الداغستان التي هي في جبال القبق مما هو باق معروف حتى اليوم، وقد قدمنا ذكر شئ من ذلك في البحث قبل اليوميات وفي أثناء الحديث في اليوميات.

وثالثُها : ان بعضهم يسمى تلك الجبال جبال (قَبْج) مثلما يفعل المتأخرون الآن حينما يسمونها تارة جبال القوقاز وأخرى جبال القفقاس.

وقال ياقوت في رسم (الكُرْج): الكُرْج – بالضم ثم السكون، وآخره جيم وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال (القَبْق) وبلد السرير، فقويت شوكتهم، حتى ملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب إليهم ومَلْك ولغة برأسها . . . قال المسعودي وقد وصف سكان جبال (القَبْق) وكُوَرها فقال: ويلي مملكة خيزان مما يلي (باب القَبْق) ملك يقال له برزينان، ويعرف بلده هذا بالكُرْج، وهم أصحاب الأعمدة، وكل ملك يلي هذه البلاد يقال له برزينان. ولم يزد – يريد المسعودي – مع إكثاره في غيرهم، فيدل على قلتهم، فسبحان مُغَيّر الأحوال، فإنهم في زماننا – أي زمان ياقوت – ملوك لهم شوكة وعدة تملكوا بها البلاد حتى أخرجهم عنها خوارزم شاه جلال الدين.

وقال ياقوت أيضًا في معجم البلدان: (باب الأبواب) ويقال له (الباب) غير مضاف والباب والأبواب وهو (الدربند) : دربند شروان.

أقول : يعرف الآن بهذا الاسم (دربند) التي معناها الباب المغلق كما ذكرنا.

قال الأصطخري : وأما (باب الأبواب) فإنها مدينة ربما أصاب ماء البحر حائطها، أقول: يريد بالبحر بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين الذي يوجد فيه دون غيره من البحار سمك الكافيار الشهير.

قال: وفي وسطها مرسى السفن، وهذا المرسى من البحر قد بني على حافتي البحر سَدَّيْن، وجُعل المدخل ملتويا، وعلي هذا الفم سلسلة ممدودة، فلا مخرج للموكب ولامدخل إلاّ بإذن.

و(باب الأبواب) على بحر طبرستان وهو بحر الخَزَر .... ولهم زروع كثيرة وثمار قليلة...

وعلى المدينة سور من الحجارة ممتد من الجبل طولاً في غير ذي عرض، لامسلك لجبلها على بلاد المسلمين لدروس الطرق، وصعوبة المسالك من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين.

وهي محكمة البناء موثقة الأساس من بناء أنو شروان، وهي أحد الثغور الجليلة العظيمة، لأنها كثيرة الأعداء، الذي حفوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير.

وقيل: إن في أعلي جبلها الممتد المتصل بباب الأبواب نيفا وسبعين أمة، لكل أمة لغة لايعرفها مجاوروهم.

وهم أولوا عدد وشدة ورجالة وفرسان.

و(باب الأبواب): فرضة ذلك البحر.

اقول: ذكر اللغات وكثرتها في تلك الجبال قد تكرر وقد صار الخبر عنه متواترًا لأنه صحيح شاهدناه حتي إنني عندما ألقيت كلمتي في مسجد في تلك البلاد صار عن يميني مترجم وعن يساري مترجم لأن جماعة المسجد الواحد لايعرفون لغة واحدة تجمعهم وسيأتي ذلك فيما بعد، بإذن الله.

وقال أبوبكر أحمد بن محمد الهمداني: و(باب الأبواب): أفواه شعاب في جبل (القَبْق) فيها حصون كثيرة..

وكان السبب في بناء (باب الأبواب) علي ماحدث به أبوالعباس الطوسي قال: هاجت الخزر مرة في أيام المنصور، فقال لنا: أتدرون كيف كان بناء أنو شروان الحائط الذي يقال له الباب؟ قلنا: لا. قال: كانت الخزر تغير في سلطان فارس حتى تبلغ همذان والموصل، فلما ملك انوشروان بعث إلى ملكهم فخطب إليه أبنته على أن يزوجه إياها ويعطيه هو أيضًا ابنته ويتوادعا ويتفرغا لاعدائهما.

إلى أن قال: فبعث إليه – أي ملك الخزر – قائلاً : عندي رأي لو قبلته رأيت ماتحب، قال: وماهو؟ قال: تدعني أبني حائطًا بيني وبينك وأجعل عليه بابًا فلا تدخل بلدك إلا من تحب، ولايدخل بلدي إلا من أحب، فأجابه إلى ذلك، وانصرف خاقان – ملك الخزر – إلي مملكته وأقام أنوشروان يبني الحائط بالصخر والرصاص وجعل عرضه ثلثمائة ذراع وعلاه حتي الحقه برؤوس الجبال، ثم قاده في البحر....

قال ياقوت : وأما حديثها أي – دربند – أيام الفتوح فإن سلمان بن ربيعة الباهلي غزاها في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتجاوز الحصنين وبلنجر – مدينة هناك –ولقيه خاقان ملك الخزر في جيشه خلف نهر بلنجر فاستشهد سلمان ابن ربيعة وأصحابه وكانوا أربعة آلاف.

فقال عبدالرحمن بن جمانة الباهلي، يذكر سلمان بن ربيعة وقتيبة بن مسلم الباهليين يفتخر بهما:

وإن لنا قبرين قبر بَلْنَجر وقبرًا بصين استان يالك من قَبْر

فهذا الذي بالصين عَمّتْ فتوحه وهذا الذي يسقى به سبَل القطر

يريد ان الترك أو الخزر لما قتلوا سلمان بن ربيعة وأصحابه كانوا يبصرون في كل ليلة نورًا عظيمًا على موضع مصارعهم فيقال: إنهم دفنوهم وأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت وسيروه إلى بيت عبادتهم، فإذا أجدبوا أو قحطوا أخرجوا التابوت وكشفوا عنه. فيُسقون.

أقول : هذا ينطبق مع ما يرويه الناس هنا من أهل داغستان في الوقت الحاضر من اعتقاد أهلها حتى غير المسلمين منهم بصلاح شهداء المسلمين، وقد تقدم ذلك.

قال ياقوت : ووجدت في موضع آخر أن ابا موسى الأشعري لما فرغ من غزو أصبهان في أيام عمر بن الخطاب في سنة ١٩ أنفذ سراقة بن عمرو وكان يدعي ذا النون إلى الباب –أي دربند في الوقت الحاضر –وجعل في مقدمته عبدالرحمن بن

ربيعة وكان أيضاً يُدعي ذا النون وسار في عسكره إلي الباب ففتحه بعد حروب جرت.

فقال سراقة بن عمرو في ذلك :

ومن يك سائلاً عني فإني	**بأرض لايؤاتها القرار**
بباب الترك (ذي الأبواب) دار	**لها في كل ناحية مغار**
نذود جموعهم عما حوينا	**ونقتلهم إذا باح السرار**
سددنا كل فرج كان فيها	**مكابرة إذا سطع الغبار**
والحمنا الجبال جبال (قبْج)	**وجاوز دورهم منا ديار**
وبادرنا العدو بكل فج	**نناهبهم، وقد طار الشرار**
على خيل تعادى كل يوم	**عتاداً ليس يتبعها المهار**

وقد استفدنا من هذا الشعر فوائد عديدة أولها أنه اعتبر الخزر من الترك وهذا هو الذي نعرفه ولكن بعض الناس جعلهم أمة أخرى وهم ذووا أصول تركية بلا شك إلا أنها جاءت إلى منطقة الداغستان من أماكنها الأصيلة في تركستان الشرقية قبل البعثة المحمدية واستقرت هناك.

وثانيها أنه ذكر دربند باسم ذي الأبواب بديلة من (الباب) أو (باب الأبواب) وذلك لكون السد الذي فيها فيه أبواب خاصة لاتفتح إلا إذا اراد أهلها ذلك.

وثالثها : نسمينه جبال القوقاز أو القفقاس (قَبْج) بالجيم بديلة من القاف التي ذكرها بها ياقوت وقبله المسعودي وغيرهما مما يدل عل أن القاف فيهما كالجيم ليست قافًا عربية أصيلة ولاجيما عربية أصيلة وإنما هي حرف أعجمي كتب عند نقله إلى العربية بما رأه مدونوه أقرب إلى النطق الأصلي قبل نقله.

مثلما صار العرب الآن يكتبون اسم هذه الجبال (قوقاز) واحيانًا قفقفاز وأحيانًا (قفقاس).

مغادرة دربند :

أحد أبراج قلعة دربند

ومن هذه القلعة واسوارها الممتدة المنيعة بل من هذا الشاهد الحي العظيم على عظمة الإسلام وقوته إذا صدق أهله الله ما عاهدوه عليه. ودعنا المرافقون الذي كانوا معنا في دربند ومنهم رئيس البلدية الروسي (فلاديمير فسلوفيتش) وأخونا الذي أضافنا في بيته (نجم الدين عبدالله) متولي المسجد وسائر الإخوة المسلمين الكرام.

وغادرنا (دربند) أو باب الأبواب كما كان أسلافنا الأماجد يسمونها وذلك في الساعة السادسة والثلث عصراً بتوقيت (دربند) السادسة بالتوقيت الصيفي لمدينة موسكو وهو يتقدم ساعة عن توقيت (باكو) المساوي لتوقيت المملكة العربية السعودية.

سار الطريق بعد (دربند) في جو ريفي خصب أكثر مافيه ظهوراً فيما قرب من الطريق مزارع العنب الواسعة المسورة بالأعواد من الخشب وبعضها بأسلاك من الحديد وذلك لحمايتها من الحيوان.

هذا ونحن ذاهبون جهة الشمال ، وقمم الجبال (القفجية) – القفقاسية – تطل من جهة الغرب وهي تماشينا دون أن يغيب حضورها عن أعيينا وكأنما هي تذكرنا بأمجاد الإسلام السالفة وبالسير العطرة لأولئك الرجال المسلمين الفاتحين الذي لاتزال أمجادهم ماثلة للعيون في هذه المآذن العالية وفي الإيمان الذي يعمر صدور الإخوة من السكان.

وخُيل إليَّ – أيضاً – أنها توبخنا نحن الأخلاف على ماضيعناه من مجد الاسلاف، فتقول : لماذا تتخلفون عن نهج العزة والتأييد؟ وها أنتم ترونه ماثلاً في هذه البلاد كما هو ماثل في انفس كثير من العباد وتبحثون عما تزعمونه جالباً للعزة والكرامة، وسبيلاً للرقي والتقدم من بدع محدثة ومذاهب غريبة حتى الشيوعية وابنة عمها الاشتراكية وجدت لها بينكم أنصاراً وأتخذت من حملتها الملحدين أصدقاء بل أصهاراً.

وعجبت لهذه الجبال الشم كيف حملت الشهادة فلم تخش قولة الحق كما خشيها الانسان حتى الذي أمتلأ قلبه من الإيمان في هذه الأوطان، لأنه يخشي البطش والطغيان من عبدة الأوثان أو ثان البدع الجديدة من الشيوعية والتخريبية التي يسمونها بالتقدمية وخُيَل إليَّ بعد ذلك أن هذه الجبال التي ماعصت أمر الله كما عصاه الإنسان قد أدركها هي – أيضاً – الخجل مما فعله الخلف بتراث السلف من المسلمين فسكتت عن الحديث حتى في الخيال، وللخيال مجال في تفكير الجبال ولله الأمر من قبل ومن بعد على كل حال.

واستمر الطريق المعتاد واستمرت معه أشجار العنب التي يخيل إليك أنها لانهاية لها لأنك تراها من الطريق إلى مالايدركه البصر من نواحيه.

وقال أحد الأخوة : لقد رخص العنب في العام الماضي حينما أخذت الحكومة في محاربة المسكرات حتى بيع الكيلو الواحد منه في وقت موسمه بعشرين كوبيا، والكوبي هو الجزء من مائة من الروبل بمثابة السنت من الدولار.

والدولار نفسه والمراد به الأمر يكي بالطبع يساوي بالصرف الرسمي ٧٠ كوبيًا ولكنه يباع في السوق الحرة الخفية بثلاثة روبلات وربما بأربعة ولك يعد ذلك أن تعرف قيمة الكوبي وقيمة العنب منه إن شئت.

وقال مرافق آخر : إن البقر والغنم والناس كلهم يأكلون عنبًا في موسمه وذلك لرخصه ولأن فيه ما لايأكله الناس لأنهم يجدون أطيب منه فتأكله الدواب.

وكرر الإخوة هنا ما قاله أهل دربند من أننا قد دخلنا أوروبا عندما دخلنا (دربند) وأننا الآن نسير في القارة الأوربية وقد فارقنا - بالفعل - القارة الآسيوية التي كنا فيها في أذربيجان ومابعدها، ولم نرهم أحتفوا بذلك من وضع علامات تبين للناس أنهم قد اقتحموا حدود القارة الأوروبية بعد أن كانوا في القارة الآسيوية.

وحق للروس أن يفاخروا غيرهم بهذا الملك العريض حتى وان زعموا -تمويها وتلبيسًا على السذج - أنهم شعب من شعوب مشتركة بالفعل في حكم الاتحاد السوفييتي فهم دون غيرهم يحكمونه عن طريق الحزب الشيوعي الذي منهم علماؤه ودهاته، بل طغاته ولايزالون - دون غيرهم - بأكثرية المقاعد أو بأهمية التعامل هم المسيطرين عليه.

والغريب في الأمر أنهم يعادون القياصرة الذين كانوا يحكمون البلاد قبلهم، ويقولون ويكررون القول بأنهم - أي القياصرة - كانوا قد غزوا هذه الشعوب غير الروسية وأنهم كانوا ظالمين لها. ولكن ذلك لم يحمل الشيوعيين على أن يعطوها حق تقرير المصير الذي أعطته الدول الاستعمارية العريقة لمستعمراتها مثل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا بل استمروا في حكم تلك الشعوب والتحكم في مصائرها

بحجة الاشتراكية والأممية التي أوحوا إليهم بأنها جعلتهم متساوين مع الشعب الروسي في الحقوق والواجبات مادامو يدينون مثله بالشيوعية ويعتنقون الاشتراكية.

وأما الطريق فإن حالته لم تتبدل، وإن كانت تغيرت قليلاً إلي الأسوء وهو من أصله غير جيد إذا قارناه بالطرق الواسعة الجيدة في بلادنا.

وكان الشيخ المفتي (محمود كيكي) رذيس الادارة الدينية لمسلمي مادون القفقاس يعللنا من بنات أفكاره بالعربية فإذا استعصى عليه التعبير بالعربية تكلم بالروسية للأخ الفاضل الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفييتي فترجم لنا مايقوله بعربية فصيحه صحيحة.

وقال الشيخ محمود كيكي إن الجو في مدينة (محج قلعة) الآن هو ربيعي بالنسبة لنا ولكن ربما وجدتموه شاتيًا بالنسبة لبلادكم ولكنه غير ثالج، فقد تولى أوان الثلج في المعتاد وإن كان قد يسقط حتي في هذه الأيام في بعض الأحيان.

وقرب الطريق من بحر الخزر الذي يسمى الآن بحر قزوين ومن هنا يستخرجون غازًا ونفطًا وهي من بلاد المسلمين مثل (باكو) وما قرب منها التي هي من بلاد المسلمين وهي عاصمة النفط في الاتحاد السوفييتي.

وقد أخذت قمم عالية من جبال القفج – القفقاس – تسايرنا وقال الأخ الشيخ محمود كيكي: هذه لا عالية، وان الجبال العالية خلفها ويرتفع بعضها ثلاثة الآف متر.

قرية ازيرباش :

وصلنا إلى قرية تبعد عن (محج قلعة) ستين كيلو متراً قالوا إن أكثر أهلها من المسلمين واسمها أزيرباش.

وعند هذه القرية أخذ الطريق يصعد إلى أقدام جبال القفج – القفقاس – ثم عاد مرة ثانية إلى المساهلة أي السير في السهل قليلاً أو لنقل ساحل إذا قلنا: إنه سار علي جانب الجبال – إن صح التعبير.

وقبل الوصول إلى (محج قلعة) بنصف ساعة أوقفوا الموكب وذلك من أجل السؤال عن راحتنا فقلنا لهم : إننا بغاية الراحة ولله الحمد.

وفتح أحد المرافقين مذياع سيارتنا وإذا بنا نسمع إذاعة نداء الإسلام من مكة المكرمة واضحًا بل مجلجلاً على الموجة المتوسطة وكأنما أنت تسمعه وأنت في المملكة العربية السعودية.

وقال الإخوة إن المسلمين الذين يعرفون العربية أو التركية يتابعون الاذاعة السعودية بهاتين اللغتين ويستفيدون منها وذلك لأن البرامج الدينية ممنوعة من داخل الإتحاد السوفييتي وأغلب الإذاعات الموجهة إليهم هي إذا عات سياسية أو تنصيرية تبث الدعاية للدين المسيحي.

وذكروا أنه حتى الذين لايعرفون العربية ولا التركية وهم الأكثر من الناس يتابعون هذه الإذاعة من أجل سماع تلاوة القرآن الكريم ولو لم يفهموا معانيه.

وأنسنا بإذاعتنا العربية المسلمة في هذه البلاد النائية من الوطن الإسلامي.

في محج قلعة :

دخلنا ضواحي مدينة (محج قلعة) عاصمة بلاد الداغستان في الساعة الثامنة مساء بالتوقيت المحلي وهي السابعة بتوقيت المملكة العربية السعودية واذاعة نداء الإسلام تنقل أذان العشاء من المسجد الشريف والشمس قد غربت لتوها هنا أو أوشكت على الغروب.

لم يتلبث الموكب في سيره، بل قصدنا الفندق المقرر أن نقيم فيه وهو فندق لينين قراد وقد وصلناه بسرعة وأخبرونا أنه سمي بهذا الأسم لأن أهل مدينة لينين قراد هم الذين ينوه عندما أصاب الزلزال مدينة (محج قلعة) وهبت بعض الأقاليم في الإتحاد السوفييتي لمساعدتها.

دخلنا غرفنا في الفندق بعد لبث في الاستقبال أكثر من المعتاد ذكروا أنه بسبب تجهيز الغرف مع أن الأخوة كانوا قد حجزوا لنا فيه منذ فترة.

ووجدنا غرفه تعادل الدرجة الثانية فالصابون فيه – مثلاً – هو صابون غسيل الملابس وليس صابون الحمام والخزائن الخشبية لاتغلق أبوابها والستائر وهي من القماش لاتنزلق عن النوافذ بسهولة والأهم من ذلك آن التدفئة فيه غير موجودة فكانت باردة برداً شديداً حتي يخيل إليك أنها مكيفة بالبارد مع أنه ليس فيه مكيف للتبريد في الصيف مما اضطر أكثر الإخوة إلي طلب أغطية إضافية من الصوف.

وجدت الضيافة في غرفتي تفاحاً من إنتاج المنطقة وشراباً من عصير العنب منها أيضاً وماء معدنياً.

مأدبة داغستانية :

عند الساعة التاسعة كان موعد العشاء قد أزف وهو في بيت الأخ عبدالحفيظ بن عمر العمري وهو إمام وخطيب في جامع (محج قلعة) ويسمونه أيضاً القاضي وهذه وظيفة غير رسمية لأن القضاء كله مدني ولكنه يقضي بين المسلمين بمعنى أنه يصلح بينهم في مشاجراتهم التي لاتصل إلى السلطات الحكومية ويعقد الأنكحة.

اخترق الموكب في ذهابه من الفندق إلى بيت الأخ الشيخ عبدالحفيظ شوارع تقل في جودتها كثيراً عن شوارع باكو عاصمة اذربيجان سواء من حيث السعة أو من حيث الجودة وهذا ظاهر السبب، فباكو عاصمة النفط وسكانها يزيدون عن سكان مج جقلعة بثمانية أضعاف.

وبعد سير في شارع رئيسي مزفلت غير واسع عدلنا منه إلى شارع فرعي ترابي فوصلنا بيت الأخ الشيخ عبدالحفيظ بن عمر فوجدناه مع ابنه وبعض أقاربه عند الباب يستقبلون ويرحبون كما رأينا النساء في باب من البيت في الداخل يراقبن من بعيد، ولم يجرؤن على الأقتراب والسلام على الضيوف وقد صارت الكبيرات في السن مما يلي جهتنا والأصغر خلفهن والجميع بدون حجاب على الوجه إلا أنهن كلهن متسترات.

أجلسونا على المائدة بسرعة حيث وجدناها عامرة بمقدمات المأدبة وأهمها الكافيار الفاخر التي يستخرج من سمك يعيش في هذا البحر الموجود في هذه الجمهورية وهو بحر الخزر أو بحر قزوين كما يسمى كله في الوقت الحاضر.

مأدبة متولى المسجد الشيخ/ عبدالحفيظ بن عمر

وهم يأكلون الكافيار بالزبد وقد سألت أحد المرافقين عن قيمته هنا فقال: إن النوع الفاخر منه تصل قيمة الكيلو الواحد أربعين روبلا أي : ٦٥ دولارًا بالصرف الرسمي، أو ١٥ دولارًا في السوق السوداء.

كما وجدنا البقول والنقول بوفرة أما البقول فمنها الوزيري الذي يشبه شكله شكل الجرجير وطعمه طعم الرشاد، والفجل إلى أنواع أخرى وأما النقول فمنها الزبيب.

وعلي المائدة قوارير الأشربة التي أهمها عصير العنب الأحمر الذي يشبه النبيذ على البعد لكن ليس به بأس وماء معدني من جبال المنطقة وهو حاذق فيه حموضة قالوا: هذه هي طبيعته.

وقد بادروا بإحضار لحم بارد ظننا أنه اللحم الوحيد على المائدة لأنهم احضروا معه لحم دجاج كبير الحجم كأنه البط. لكن تبين أن هذا كله إنما هو مقدمات المائدة إذ أقبلت الأطباق تترى باللحم الحنيذ – الشواء – واللحم الصليق – المسلوق – كما

جاؤا بما نسميه في بلادنا باليغمش وهو الذي يشبه السمبوسك يصنعه البخاريون إلا أنه لين دسم، ثم جاؤا بالمحشي من العنب والكرنب وفطائر بالسبانخ وهي التي نسميها عندنا في الحجاز (مُطَبَّق).

فأكلنا حتي أثقلنا إلا أنهم جاؤا بعد ذلك بالحلوى نوعين وبالفاكهة نوعًا واحدًا هو التفاح لأنه الفاكهة الموجودة الآن التي تنتجها بلادهم.

وقد ألقى مضيفنا الكريم الأخ الشيخ عبدالحفيظ بن عمر العمري كلمة مكتوبة بالعربية رددت عليه بكلمة مجاملة وشكر ودعاء له وللاخوة وهذا نص كلمته ذكرتها كما ذكرت نصوص بعض الكلمات العربية لأمثاله التي ألقيت من أجل الإطلاع على أسلوبهم في العربية والتعابير والجمل التي يستعملونها وهم يكادون يكونون في معزل عن تأثير التطورات اللغوية والبيانية التي طرأت على التعبير بالعربية في العالم العربي.

قال الشيخ عبدالحفيظ :

يلقى كلمة الترحيب بالوفد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي رسوله محمد وآله وصحبه اجمعين وبعد:

فمرحبًا بكم أيها الإخوة العلماء السادة العربيون إننا سررنا وفرحنا بقدومكم وتشرفنا بلقائكم وباجتماعنا في وطننا وبيوتنا مع أهلنا وأولادنا هذه سعادة عظمى ونعمة كبرى بارك الله فيكم ووقاكم من الحادثات.

لعمر الله الواجب الوجود إننا معاشر الداغستانيين نحب العرب خاصة أهل الحرمين الشريفين ولعلّ الله سيثبت هذه الصداقة والأخوة بيننا إن شاء الله ويكثر لهذه العلاقات واللقاءات بيننا مدى الأيام صانكم الله من النائبات.

وجعل الله هذه اللقاءات والاجتماعات سببًا لتعميم السلام والهدنة والصلح على وجه البسيطة بين العالم ورفع الظلم والاعتداء والمصائب النازلة علي إخواننا العرب وسائر الناس بأسرها كما قال الله تعالى ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان﴾

ولقوله تعالى ﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ ولقوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا﴾ ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فنرجو لكم أيها الإخوان الغناء والتقدم والنصرة والسعادة والهدى.

ولازلتم وحوادث الأيام راغبة عن ساحتكم الكريمة الواسعة المباركة الغنية والسلام عليكم ورحمة الله

أخوكم عبدالحفيظ العمري إمام وخطيب وعقد أنكحة.

وعند العاشرة والنصف كنا نودع الأخ الكريم الشيخ عبدالحفيظ وأهل بيته وإخوانه الذين حضروا هذه المأدبة الحافلة وقد دعوت لنسوة مسنات كن يراقبن من داخل الدار وأهم دعوة عندهم وأحب شئ إليهم أن تدعوا الله بأن ييسر لهم الحج والعمرة وزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلام علي الرسول الكريم وصاحبيه.

وتجددت المشكلة عندما عدنا إلي الغرفة في الفندق وهي البرد الشديد ولم أجد في خزانة الغرفة أغطية إضافية كالتي تكون في الفنادق العالمية إذا احتاج النزيل إلى غطاء إضافي استعملها.

لم يكن الغطاء الذي وضعوه على السرير كافيًا لأنه ليس إلا بطانية صوفية سميكة وضعوها وسط مايشبه الكيس الذي فيه فرجة في وسطه ويصنعونها هكذا في البلدان الباردة من أجل أن يدخل النائم رجليه في هذه الفتحة من كيس القماش التي تكون فيه البطانية فلا ينزلق عنه الغطاء أثناء نومه فيصاب بالبرد لأن الغطاء ليس عريضًا وكان يكفي من ذلك أن يكون الغطاء عريضًا حتى يكفي السرير كله فلا ينزلق عن النائم.

ولم أعرف كيف أتصل بالمسئولين عن الغرف لأن خدمة الغرف كلها كانت تقوم بها عجوز روسية كانت موجودة على مكتب في الطابق الذي نحن فيه وقد اتصرفت الآن.

ولم أجد إلا أن آخذ الفراش الذي علي السرير الثاني في الغرفة وأضعه فوق الغطاء ومع ذلك بت كما بات إخواني بشر ليلة باردة، وبخاصة عندما كنت أحتاج إلى الانتقال داخل الغرفة والذهاب إلى الحمام عند بابها الداخلي.

يوم الأربعاء ١٤٠٦/٨/١٤هـ - ١٩٨٦/٤/٢٣م

صباح داغستان :

أو على الأدق صباح محج قلعة لأنها هي التي فتحت عليها عيني ونافذتي في هذا الصباح . بل وهي التي فتحت أذني على قعقعة النوافذ وقلقة زجاجها والرياح الباردة تحاول أن تلج الغرفة الباردة لتزيدها برداً على برد فكان صوت الريح الباردة والشعور بالبرد داخل الغرفة قد أضيف إليهما منظر الجو وهو مكفهر لم تشرق شمسه من الغيم وان كانت أشرقت في الجو .

وعند الإطلالة من النافذة كان الطقس مغبراً وليس كل ذلك من غبار ولكنه قتام لا أدري مبعثه والشوارع التي رأيتها من نافذة الفندق الذي يقع في القسم الحديث من قلب المدينة كانت جيدة إلا أن الازفلت فيها حائل اللون والوان الأبنية ليست بعيدة من ذلك فقل أن ترى فيها لوناً بهيجاً أو لنقل لوناً واضحاً وأكثرها بيض حائلة أو صفر باهتة أو خضر متغيرة والخضر فيها قليلة .

ومع ذلك فإن المبهج للنفس بل المطرب لها هو أننا الآن في بلاد إخوة لنا في الإسلام بلاد اشتهرت بالقوة في الدين والمحبة لأهله : بلاد الداغستان .

وكان موعد طعام الإفطار في الثامنة والنصف فنزلنا في مطعم الفندق فكان نجم المائدة الكافيار الثمين وكان في هذا اليوم نوعين أحدهما الأسود الغالي والثاني الأحمر وكذلك اللبن أنواع من الحليب والرائب والبقول من الكزبرة والحلوة وهي (الشبث) والوزيري والطماطم وهي أغلى مالديهم في الوقت الحاضر لأن الموجود فيها الآن استنبتوه في بيوت اللدائن التي تحميه من البرد .

ولذلك بادر أحدهم باعطائي فصاً من الطماطم يؤثرني به على غيري .

في رئاسة مجلس الوزراء:

كانت الفقرة الأولى في برنامج هذا اليوم هي زيارة مجلس الوزراء لجمهورية داغستان الشعبية الاشتراكية السوفيتية ويسمى مجلس السوفييت الأعلى للجمهورية وذلك في الساعة العاشرة .

وصلنا إلى مقر رئاسة الوزارة في مبنى متوسط خال من الفخامة أو مظاهر الهيلمة وصعدنا درجًا إلى الطابق الثاني فوجدنا في الاستقبال نائبة رئيس الوزراء في الجمهورية (حفيظة بنت محمد عبدالله) ومعها بعض الوزراء والموظفين الكبار في الدولة.

وقد سلمت سلامًا كريمًا محتشمًا وهي قد لبست زيًا محتشمًا وبدا عليها الخجل كما يبد وعلى السيدة المسلمة عندما تقابل رجالاً أجانب رغم كونها موظفة كبيرة في الإدارة في هذه المدينة.

وبعد السلام المقتضب قالت : أرجو ألا يزعجكم أن تكون التي استقبلتكم أمرأة فقلت لها إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «النساء شقائق الرجال».

ثم دخلنا قاعة مستطيلة عليها مائدة اجتماع مستطيلة أيضًا جلس فيها الجميع فبدأت السيدة حفيظة تقول:

إن شعب الأتحاد السوفيتي يعرف شعب المملكة العربية السعودية بأنه شعب محب للسلام ويعمل على توطيد الأمن والسلام في العالم.

ثم تحدثت عن داغستان بقولها: إن جمهورية داغستان المتمتعة بالحكم الذاتي تأسست في ٢٠ يناير ١٩٢١م و مساحتها ٥٠ ألف كيلو متر مربع وسكانها ١٥٧٠٠٠٠ نسمة فيها ٧٩محافظة و٨ مدن والعاصمة محج قلعة وتقع داغستان في القسم الجبلي من القفقاس وتشتهر بصناعة الاحذية والمحركات والبترو كيميائيات وغير ذلك من الصناعة الحديثة والمتطورة وتستفيد الجمهورية من كثرة انهار البلاد في توليد الطاقة الكهربائية . . . والمواصلات في داغستان متطورة لأن المنطقة جبلية فهي تنال اهتمام الحكومة على تحسين الاتصال، فالعاصمة محج القلعة تتصل بطرق برية جيدة بالمدن والعواصم المجاورة كما تربطها الخطوط الجوية والبحرية بالجمهوريات المجاورة ويعبر داغستان طريق ماوراء القفقاس البالغ ٢٧٠٠ كيلو متر.

قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ لم يكن في داغستان أطباء والآن يوجد ١٠٠٠ مستشفى يضم ٢٠٥٠٠ سرير وكما يوجد في البلاد ٦٥٠٠ طبيب و١٦٠٠٠ ممرض وممرضة وتوجد كثير من المصحات التي يأتي إليها الناس من جميع مدن الإتحاد السوفيتي كما يأتيها أشخاص من الخارج وقد قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي جعل ساحل بحر قزوين استراحة ومصحة للعمال في الإتحاد السوفييتي.

وقبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ كانت ثقافة داغستان متدنية جداً إذ كان ٩٠٪ من أفراد الشعب اميين ولايوجد من المواطنين الذين لديهم تعليم عالٍ إلا ١٧ شخصا في البلاد ويوجد في داغستان اليوم ١٥٠٠ مدرسة و٢٣ مدرسة فنية و٣٠ مدرسة مهنية وخمسة معاهد عليا، ويبلغ عدد الجامعيين ١٥٠ ألف شخص و١٦٠ دكتوراً و١٥٠٠ مرشحاً لدرجة الدكتوراه في داغستان ويعمل استاذان من داغستان في الأكاديمية الإتحادية ومثلهما في اكاديمية العلوم التخصصية.

وقد تطورت الثقافة والفنون في بلادنا من خلال المعاهد والجمعيات الخاصة وقد زارت فرقة داغستان للغناء والرقص ماليزيا ويقال إنها حصلت على الإعجاب والنجاح كما ترجم عدد كبير من الادب الداغستاني إلى اللغات الاجنبية ومنه بدائع الاديب رسول كافي زاده الذي تغنى بجمهورية داغستان.

وتطبع في داغستان ست جرائد و٤مجلات وتردها ٤٢ جريدة والراديو والتلفزيون يبثان برامجهما باللغات القومية لداغستان التي يبلغ عددها ٣٦ لغة والحكم السوفييتي حقق مطالب الشعب ورغباته وضمن للمواطنين الداغستانيين كافة الحقوق السياسية والإقتصادية، والحكم يتم عبر المجالس الشعبية والمحلية التي يتم اختيار اعضائها بالترشيح والإنتخاب.

وينص قانون داغستان علي ضمان حرية الوجدان، فمن اراد أن يؤمن باله فله إرادته ومن أراد أن يكفر فله ذلك. وللمنظمات الإسلامية حقوق وأعباء ونشاط تمارسه بموجب الدستور ولايوجد عمل أو علاقة بين الدولة والمنظمات

الدينية، فالدين مفصول عن الدولة والمدرسة ولكن نحترم رجال الدين والمفتي الشيخ محمود كيكي هو جاري وعلاقتنا جيدة معه. ونحن نريد السلام للمؤمنين وغير المؤمنين وعلينا جميعًا أن ندعوا للسلام ونسعى إليه.

واختتمت بقولها: أرجو ألا يزعجكم استقبال أموأة لكم.

وقد اجبتها على كلمتها بالشكر علي الترحيب والاستقبال وقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «النساء شقائق الرجال» وهي شقيقة الرجل كما قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «خذوا نصف دينكم من عائشة»... ولاشك أن هذه البلاد التي أغلبها من المسلمين استقبلتنا بالحفاوة والترحيب وشعرنا فيها بأننا وصلنا إلى بلاد شقيقة ذلك لأن الدين الإسلامي الذي يربطنا بالمسلمين في هذه

البلاد هو ليس دين عبادة وطقوس فقط، وإنما هو ثقافة وحضارة ونحن أتينا من الرابطة وهي منظمة شعبية عالمية وليست حكومية ولم نأت موفدين من حكومة المملكة العربية السعودية وإن كنا مواطنين سعوديين.

وجئنا إلى هنا ننشد التعاون في مجال الثقافة والحضارة الإسلامية والرابطة التي يشترك في مجالسها ممثلون من مختلف شعوب وجماعات الإسلام يهمها التعاون الثقافي في الإسلام ومسلمو الإتحاد السوفييتي من أعرق المسلمين إسلاماً فقد دخل الإسلام إليه منذ أكثر ١٣٠٠عاماً.

وعندما دعانا سماحة الدكتور شمس الدين بابا خان نيابة عن الإدارات الدينية رحبنا بالدعوة وقمنا بالزيارة، وعندما وصلنا واجتمعنا بالمسلمين شعرنا بأن هذه الزيارة كان ينبغي لها أن تتم منذ فترة طويلة ونحن لسنا من رجال السياسة والإقتصاد ولكن عملنا هو العمل الإسلامي بدون تدخل في الشئون السياسية والداخلية لأي دولة، ونتعامل مع كافة المنظمات الإسلامية مع إختلاف أنظمة الحكم فيها ونحن ننشد التعاون وتوثيق الصلات، ولايعني هذا اهمال صداقة الشعوب غير المسلمة.

وقد استمر الحديث مع السيدة (حفيظة بنت محمد عبدالله) ساعة وربعاً وحضره عدد من المرافقين والصحفيين الذين رأيتهم يتابعون الحديث ويسجلون كل مادار من نقاش كما أن مصوري التلفزة قاموا بتصوير اللقاء كله كما جرت عادتهم في مثل هذه المواقف، وانضم إلى رجال الإعلام الذين كانوا معنا منذ ابتداء الرحلة وعددهم خمسة مصورون وصحفيون محليون.

وفي نهاية الإجتماع ودعتنا السيدة حفيظة إلى أن نزلنا من الدرج.

إلى مدينة بوينا كسكي :

وهي بلدة خالصة للمسلمين وذلك أن مدينة (محج قلعة) مثل غيرها من مدن المسلمين الكبيرة قد زاحمهم عليها غير المسلمين من الروس والأكرانيين وغيرهم وينطق الأهالي بأسمها (بويناك) أما اسكي فهي إضافة من اللغة الروسية.

وتبعد هذه المدينة عن عاصمة الجمهورية (محج قلعة) ٤٨ كيلو متراً، وكانت عاصمة داغستان في وقت من الأوقات في القديم.

وقبل التحرك إليها ذكروا أن أسمها هذا حديث سميت به على أسم أحد رجال الثورة وأن أسمها القديم كان (تمير خان شوري).

وقد أخبرونا أن الجو فيها أشد برداً مما هو عليه في (محج قلعة) وذلك لكونها واقعة في منطقة من جبال (القوقاز) أعلى من المنطقة التي تقع فيها (محج قلعة) فلبسنا من الثياب الثقيلة التي معنا ما أثقل كواهلنا.

وكان الجو بارداً هذا الصباح والريح تعصف زمهريراً لايقل عن أشد أيام الشتاء عندنا في نجد وحتى السكان الذين قد أعتادوا على البرد نرى عليهم اليوم ملابس الشتاء رغم كوننا في النصف الأخير من شهر أبريل.

سار الموكب خلف سيارة من السيارات العسكرية المعتادة إلا أنها في داخل المدينة فكانت تطلق بوقها المعهود وهو يخترق شوارع محج قلعة التي بدت لا بأس بها من حيث الزفلتة وإن لم تكن كذلك من حيث السعة، ما عدا شارعا رئيسيًا سلكتاه عند الخروج من المدينة.

ولاحظنا وجود الأبنية المتعددة الطوابق (العمائر) فيها حتى في قلب المدينة مع أن المعتاد أن تكون في أطرافها ربما كانت أقيمت في أماكن بيوت شعبية قديمة.

وهذه الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق تبنيها الدولة من أجل إسكان المواطنين فيها، وتتألف من شقق صغيرة ومتوسطة.

وقد كثرت هذه الأبنية بالفعل في ضواحي المدينة كثرة ملفتة للنظر وكثر معها ظهور بيوت الطين القديمة التي يبدو التجديد على بعضها وقد طليت هذه البيوت الطينية بطلاء أبيض من الجص أو من مادة تشبه الجص وهي ذات سقوف مسنمة أكثر سقوفها من الصفيح المجلل بالآجر الأسود.

ومن الأشياء الملفتة للنظر في ضواحي (محج قلعة) التي مررنا بها عربات الحافلات الكهربائية (الترولي باص) وحوائط الطين الطويلة التي كانت قد بنيت على بساتين واسعة أو لتكون أسوارًا لأشياء متعددة من الأشجار أو الأبنية، ومن الواضح أنها لم تكن هكذا منذ أن بنيت أول مرة فهي إما أن تكون بنيت منذ عهد ما قبل الثورة الشيوعية وجددت بعد ذلك أو تكون قد بنيت بعد الثورة.

وقد ذكرتني هذه الحوائط الطينية بالأسوار الطينية التي كان بنو قومنا يديرونها على حوائط النخيل تحميها من الداخلين، وقد تلاشت في الوقت الحاضر عندنا وبطل استعمالها وحتى القديم منها لايرمم ولايعاد إصلاحه.

والفرق الوحيد الذي لاحظته بين حوائط الطين هذه التي رأيتها هنا، وهي ليست في كل الأماكن وبين حوائط النخيل عندنا هو أن طينهم رمادي اللون.

كما نلاحظ في هذه الضواحي كثرة الأشجار مما يدل على أنها من الأشجار التي كانت موجودة قبل عمارة هذه الضواحي من المدينة وإنما نسقوا ماحولها تنسيقًا.

ولايفارق المرء هنا مايشد نظره إلى كونه في بلاد للمسلمين من لباس النساء الذي يغلب عليه الإحتشام فجميع المسنات والمتوسطات في العمر على رؤوسهن المناديل، أو ما يشابه الايشارب وهو الذي يحيط بالوجه.

كما لاحظنا كثرة سيارات الأجرة ذات اللون الأصفر وكلها مملوكة للدولة وسائقوها موظفون عندها وكلها مزودة بالعداد كما أخبرونا.

وقد كثر وجود الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق التي تؤجرها الدولة شققًا للناس.

وبهذه المناسبة ذكروا لنا ما سمعناه من قيل وهو أن المقرر لكل شخص من السكن في مثل هذه الأبنية حده الأدنى ستة أمتار وحده الأعلى اثنا عشر مترًا مربعًا حسب الإمكانية ووفرة المنازل أو قلتها.

بمعنى أن الرجل إذا تزوج وقبل أن يولد له أولاد يحق له أن يطلب مسكنًا لايزيد في أكثر الأحوال على ستة عشر مترًا مربعًا له لزوجته ولايزيد بأية حال من الأحوال على ٢٤ مترًا مربعًا، فإذا كان قدر لهما ولد فإنهما يستحقان ستة أمتار مربعة أو فوقها قليلاً إضافة إلى ذلك.

وتحسب هذه الأمتار المربعة في غرف الشقق السكنية ولايدخل فيها منافع الشقة كالحمام والمطبخ، فإنها لاتدخل في حساب الأمتار المربعة المذكورة.

أما القاعات أو مايسمى بصالات التوزيع فإنها لاتكاد توجد في البيوت السكنية الحكومية وإنما يستعيضون عنها بممرات بين الغرف أو بينها وبين منافعها.

ذكر لنا الأخوة المرافقون أنه إذا زاد عدد أفراد الأسرة فإن ربها يكتب للسلطات المسئولة يطلب منها أن تبدله مسكنًا كبيرًا بمسكنه الصغير وكل ذلك شقق في العمارات فيقيد طلبه وعليه أن ينتظر حتى تجئ نوبته أي دوره في الطلب إذا وجد المسكن قبل أن ينتقل إلى المنزل الأوسع.

وقد يستغرق ذلك سنتين أو ثلاثا.

في ريف داغستان :

تركنا ضواحي (محج قلعة) وخرجنا للريف، فصعدنا بسرعة على تلال جبلية من جبال القفقاس المتطامنة مع طريق لابأس به من حيث السعة والزفلتة يسير في حضن إحدى التلال الجبلية صاعدًا تاركًا على جهة يساره واديًا عميقًا بين الجبال.

وأما الجبال فإنها مجللة بأردية من عشب الربيع الأخضر وأشجار الغابات فيها قليلة وقال الشيخ محمود: إن أمثال هذه الجبال تعتبر مراعي للأغنام ولازراعة فيها.

وذكر أن المطر الآن قليل ولكن الماء كثير من الأنهار والسدود.

وقال توجد في هذه البلاد الماعز البرية – يريد بها الأروية – واحدة الأروى وخراف وحشية أي غير مستأنسة وهي كبيرة الحجم.

ورأينا غنمهم وهو هنا أبيض اللون بياضاً غير ناصع، وحجمه يميل للصغر ولكن صوفه كثير وهم ينتفعون به كثيراً بسبب برودة البلاد والحاجة إلى الملابس والاغطية الصوفية الثقيلة.

ثم انحدر الطريق إلى واد واسع فيه حقول للقمح كلها حكومية أي مملوكة للدولة مثل كل الأشياء في البلاد إلا ما قل.

أول قرية أسلمت :

صعدنا بعد هذا الوادي الواسع تلالاً طينية تكاد تكون جرداء إلا من أعشاب قليلة ورأينا قناة ضيقة من الماء تجري في مكان منها عال لأنها قادمة من منطقة أعلى.

ثم وصلنا واديًا متسعًا آخر فيه قرية (قمق) وهي قرية مسلمة، بل هي أول قرية أسلمت بعد فتح (دربند) التي هي (باب الأبواب) ودخول أهلها في الإسلام.

وذكروا لنا أن آهل قرية (قمق) هذه كلهم مسلمون.

ولم نقف في هذه القرية المسلمة الجديرة بالوقوف وإنما واصلنا السير على الطريق الذي صعد إلى تلال في الجبال، وقد ساءت حالة الطريق، فصار الازفلت فيه مختلطًا بالتراب حتى إن السيارات التي كانت تقابلنا أو كنا نتجاوزها وأغلبها سيارات كبيرة تثير غباراً متصاعداً لاسيما إذا لامست أكتاف الطريق.

والسيارات الكبيرة في طرق الإتحاد السوفييتي بأنواعها المختلفة هي في الأرياف، والأماكن البعيدة من المدن أكثر من سيارات الركوب، فالقوم يقدمون العمل على الرفاه. وهذه قاعدة عامة في أمور الدولة كلها.

وقد زاد من المضايقة التي تحس بها من الغبار دخان متصاعد من قمائم متفرقة كانوا قد اوقدوا فيها النار مما يدل على أننا قد أوشكنا الوصول إلى:

مدينة بويناكسكي :

وقد وصلنا فوراً إلى هذه المدينة فدخلنا شارعها العام فرأينا أكثر السيارات فيه هي سيارات الجيب وسيارات النقل، والقلابات قصيرة الصناديق.

ثم بانت منارة المسجد الجامع، شامخة ذات منظر جميل.

جامع بويناكسكي

ووقف الموكب عند المسجد الجامع ولم يكد يصل إليه إلا بشق الأنفس، إذ وجدنا الألوف المؤلفة من الأخوة المسلمين ينتظرون وكان بلغهم خبر مجيئ الوفد.

فتزاحموا على السيارات قبل وقوفها حتى كان رجال الأمن مع نفير السيارات لايقوون على زحزحتهم عن طريق السيارة.

جانب من الجماهير المحتشدة في بويناكسكي

وعندما وقفت السيارات قرب باب المسجد وترجل أعضاء الوفد منها أحاط جمهور المسلمين بهم كل واحد منهم يحاول أن يصافح الوفد فإن لم يستطع المصافحة بسبب شدة الزحام فإنه يحاول أن يمس أي جزء من الجسم كاليد أو الكتف وإن لم يستطع حتى ذلك فإنه يسعى إلى أن يمس ولو طرفا من ثوب أحد الأعضاء وكان لهم في هذا المجال من أطراف العباءات العربية المسترخية التي كان أعضاء الوفد يجرجرون أذيالها أكبر مسعف ومعين.

قبل الدخول لمسجد بوياكسكي

كل ذلك حبًا في إخوانهم المسلمين القادمين من بلاد الحرمين الشريفين، وأغلقوا الطريق الذي نقصده وهو المفضي إلى باب المسجد فكان الشيخ محمود كيكي ومن معه من الإخوة المرافقين يصيحون بنا: إلى المسجد وكان رجال الأمن يساعدون على إفساح الطريق غير أن مشاعر الاخوة المستقبلين كانت أعمق من أن تصلها تلك الأصوات، وقلت في نفسي: أيوم كيوم كاشغر؟

عند الوصول إلى جامع بوينا كسكي

ويوم كاشغر هو اليوم الذي استقبلنا فيه الأخوة المسلمون من أهل كاشغر عند ما زرنا منطقة تركستان الشرقية الواقعة في الصين الشيوعية، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً ذكرت ماجرى فيه في كتاب: «مهد الترك»

شيوخ حضروا لاستقبال وفد رابطة العالم الإسلامي

وعندما دخلنا المسجد أسر الشيخ محمود في أذني قائلاً: لو جئنا يوم الجمعة لكان في ذلك خطر عليكم من كثرة الناس الذين يتزاحمون للسلام عليكم.

وقد تبين بعد أن انجلى الأمر أنهم كانوا قد نظموا الناس فجعلوهم صفوفًا من أول الشارع المفضي إلى باب المسجد حتي باب المسجد ولكن غيرهم لم يمتثل ذلك فتقدموا الصفوف، واختل النظام.

المسلمون يحيطون بأعضاء وفد الرابطة في بوينا كسكي

دخلنا جامع (بوينا كسكي) والمؤذن يصدح بأذان الظهر وقد امتلأ المسجد بالجمهور الذين لم يجدوا فيه مكانًا لأكثر من موطئ أقدامهم فاكتفوا بالوقوف إلى أن أمرهم الإخوة المرافقون بالاستعداد للصلاة وعدم التزاحم وسوف يستمعون إلي مايلقى من المكبر من كلام بعد الصلاة فجلسوا ولم يجد كثير منهم مكانًا إلا في شرفة كبيرة في جانب المسجد مخصصة للنساء يصلين فيها فملأوها قياما وازدحموا فيها مما جعلني أشفق من سقوطها وأبادر بذلك إلى الإخوة المستقبلين من أهل البلدة الذين يعرفون العربية فقالوا: إن الأعمدة قوية ولانخاف عليها من السقوط.

شرفة مسجد بوينا كسكي مليئة

وكان الهتاف الذي يملأ الحناجر ولكن بنظام هو التكبير : الله أكبر ، الله أكبر .

الحفل الخطابي :

إنقضت الصلاة فتقدم الشيخ محمود كيكي وألقى في المكبر كلمة قدم فيها وفد الرابطة فسرد أسماءنا وذكر أعمالنا في الرابطة وقال:

الشيخ المفتي محمود كيكي يقدم وفد الرابطة

إن هذه الأيام لمباركة في بلدنا إذ زارنا وفد من الأراضي المقدسة من جوار الحرمين الشريفين من مكة المكرمة والمدينة المنورة ولم يسبق لنا منذ أمد بعيد أن استقبلنا رجالاً من تلك الأراضي الطاهرة التي نتوجه إليها في صلاتنا وان أعضاء الوفد هم يعملون في رابطة العالم الإسلامي وهي هيئة تعمل لخدمة الإسلام والمسلمين في كل مكان في العالم وقد جاء الوقد للاطلاع والتعارف مع المسلمين في الإتحاد السوفييتي.

المؤلف يحيط به المترجمان أثناء إلقاء كلمته في مسجد بويناكسكي

ثم طلب مني أن أتحدث إلى المسلمين في المسجد، فنهضت وقلت فيما قلته: أيها الأخوة في الله. إذا كنا بعيدين عنكم في المسافة فإننا قريبون منكم بقلوبنا وأرواحنا وكنا دومًا نتطلع إلى رؤيتكم والاجتماع بكم. وقد جئنا إليكم تلبية لدعوة الإدارات الدينية الإسلامية برغبة السلام عليكم والاستفسار عن أحوال إخواننا في الإسلام في الإتحاد السوفيتي الذين هم مثل أخوتنا الاقربين والمجاورين في مكة المكرمة وغيرها من مدن العالم الإسلامي لأن أخوة الدين الإسلامي هي أقوى من قرابة النسب والدم لأنها هي الأخوة التي باركها الله عز وجل، فجعل من بلال وصهيب وسلمان أخوة في الإسلام وهو الذي ذم أبا لهب في سورة من سور القرآن مع أنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم فالقرابة الروحية أبقى من رابطة الجسد، ولو لم تكن قرابة الدين لما جئنا إليكم، إذْ لم نأت إلى هنا لمنافع اقتصادية وسياسية.

والمسلمون في العالم عبر ممثليهم في مجالس الرابطة وعبر الجمعيات الإسلامية التي تتعامل معها الرابطة يتساءلون عن احوال إخوانهم في الدين في الإتحاد السوفييتي ونحن بعد أن جئنا إليكم وشاهدنا أحوالكم سنفيدهم عن أخباركم.

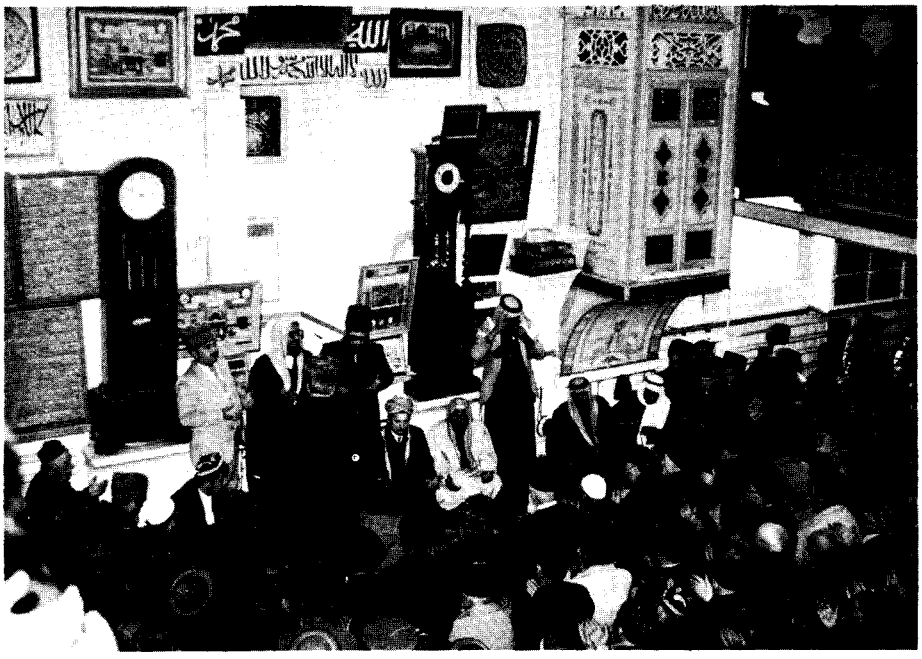

لوحات وكتابات بالعربية على جهة المحراب في مسجد بويناكسكي

وفي هذا اليوم الذي نعتبره من أيام الله تعالى الذي جمعنا بكم على الإسلام نريد أن نقول لكم بأنه لايكفي أن تكونوا مسلمين بل عليكم تربية أبنائكم على الإسلام وتعليمهم أحكام الدين حتى ينشأ اجيالكم على الإسلام وعليكم أيضًا إرشاد إخوانكم وزملائكم ونصحهم باللطف واللين للمحافظة على الصلاة والتمسك بمبادئ الإسلام وتربية أولادهم على الإسلام.

وقد لاحظت تأثرهم من سماع هذه الكلمة التي هي أول كلمة تقرع اسماعهم من وفد جاء من الحرمين الشريفين فكان البكاء فيهم كثيرًا بل لاحظت أن بعضهم ظل

يبكي طول القاء الكلمة من فرط التأثر ومن بين هؤلاء شيخ مسن ذو لحية بيضاء مهيبة، ولباس تقليدي عريق وقد ظل هذا الشيخ ملازمًا لنا في جميع الأماكن في داغستان، وكلمني طالبًا مني الدعاء ثم رغب مني في صورة له مع الوفد فكانت هذه الصورة وهو متقاعد عن العمل.

بعض الذين كانوا في مسجد بوبناكسكي

وبهذه المناسبة أقول: إن أكثر الذين كانوا في الاستقبال كانوا من كبار السن غير أنه كان فيهم من هم من الكهول، وفي منتصف الأعمار. ويظهر عليهم أنهم من الفلاحين أو من القرويين أي من غير المثقفين لأن هؤلاء لو أرادوا الحضور لم يستطيعوا لأن الوقت وقت عمل بالنسبة إليهم.

اللغات في داغستان أيضًا :

عندما حدثوني أن في داغستان أكثر من ثلاثين لغة مع أن عدد سكانها لايصل إلى مليوني نسمة لم أكد أصدق ذلك رغم أن الذين حدثوني به كانوا من أهل داغستان ومنهم من يشغل منصبًا رسميًا مثل رئيس بلدية دربند.

وعندما قمت لإلقاء كلمتي وقف بجانبي أخوان كريمان أحدهما من اليمين والثاني من اليسار وهما الشيخ الياس عبدالله عن يميني والشيخ مرتضي علي بن حاجي باو على يساري وذكروا أن الأول سيترجم ما أقوله إلى لغة (قيماق) وقد يسمونها القومقية والثاني وهو مرتضي سيترجمه إلى لغة (أوري) وهي اللغة الأورية فجماعة المسجد لايفهمون كلهم لغة واحدة.

وربما كانت هاتان اللغتان هما الرئيستين وإلا فهناك لغات لمن كانوا في المسجد غيرهما.

كنت ألقي الجملة بالعربية فيترجمها الذي عن يميني إلى إحدى اللغتين فإذا انتهى ترجمها الثاني إلى اللغة الأخرى.

الدعاء في مسجد بوينا كسكي

والظاهر أن سبب كثرة اللغات في داغستان هو وقوعها في جبال وعرة صعبة المسالك، لايتصل بعضها ببعض في القديم لذلك نشأت فيها جماعات صغيرة منعزلة عن غيرها صارت لها على مدى القرون لغات خاصة بها، أو لهجات انفصلت عن لغة كانت أعم وتباعدت عنها حتى صارت لغة مستقلة بذاتها.

أما مناظر هؤلاء القوم وألوانهم فإنهم في لون الأوروبيين المعتاد إلا أن الشبان والأصحاء منهم يبدون أكثر نضارة في الوجوه من الأوروبيين بسبب بعدهم عن الخمر والمسكرات.

مع الإخوة المسلمين في بوينا كسكي

غداء المتولي :

خرجنا من المسجد في مظاهرة إسلامية قاصدين بيت المتولي الذي هو رئيس جمعية المسجد يسمونه (المتولي) لأنه يتولي أمور المسجد واسم مضيفنا (عمر بن موسى) فوجدنا جموعًا أخرى من الإخوة المسلمين قد تجمعت حول بيته لأنهم

علموا بأننا سنحضر فيه وفيهم طائفة من النساء والأطفال الذين لم يستطيعوا أن يحضروا قرب المسجد الجامع بسبب الزحام الشديد.

عند بيت الأخ عمر بن موسى في بوينا كسكي

وجدنا المائدة معدة عليها المقدمات المعتادة من البطارخ أو ما يسمى بالكافيار الروسي الشهير على أنه ليس من منطقة الروس وإنما هو من بحر قزوين أو بحر الخزر الذي يقع في منطقة من مناطق المسلمين، ومعه أنواع من الحلوى والفاكهة والمكسرات وأنواع من الخبز ثم جاؤا باللحم والأرز واليغمش وهو من طعام البخاريين المعروف في بلادنا ثم الحساء وكان دسماً قد أسقطوا فيه حبات من الحمص الكبير، ثم البطاطس، وكانوا يضعون على كل صحن وإناء من هذه الأطعمة قليلاً من البقدونس الأخضر الذي لاشك في أنه مستنبت داخل بيوت محمية عن البرد ولذلك يضعون على بعضها قليلاً من الكزبرة الطازجة والشبث الذي يتخذ من بزره الكراوية في مصر.

على مائدة متولي المسجد الأخ عمر بن موسى

ثم أحضروا سمك الكافيار أي السمك الذي يبيض الكافيار وهو لايوجد في غير بحرهم هذا وهو لذيذ الطعم ويقولون إنه غالي الثمن بحيث أن الكيلو الواحد منه يباع بعشرين روبلاً علي حين أن السمك المعتاد يباع بروبلين اثنين.

وبعد الغداء سلمنا على اعداد كبيرة من المسلمين الذين كانوا قد تجمعوا في الخارج واشرنا بالتحية إلى جمع من الأخوات المسلمات اللائي كن قد وقفن في صفوف طويلة خارج المكان.

صورة تذكارية مع الذين حضروا مأدبة متولي المسجد

وتركنا بلدة (بوينا كسكي) في الثالثة والربع بين حفاوة وتكريم بالغين من أهلها الكرام والتقطنا قبل مفارقتها صوراً تذكارية عديدة.

وقبل أن نفارقها يجدر بنا أن ننوه بأن سكانها يبلغ عددهم سبعين ألف نسمة وأن مسجدها الذي دخلناها بني على حالته هذه قبل مائة سنة كما قالوه وأن أهلها مسلمون غير أنه يوجد بينهم أفراد من المسيحيين واليهود.

محطة توليد الكهرباء :

أخبرنا الإخوة أن برنامج الزيارة يتضمن زيارة محطة لتوليد الكهرباء من مياه سد أقيم في المنطقة.

ففي منتصف الطريق بين مدينة (بوينا كسكي) ومحج قلعة عاصمة الجمهورية عدل الطريق جهة الشمال الذي هو يسار الطريق بالنسبة للقادم إلى (محج قلعة) وهو متجه إلي مهب الشمال فسار مع تلال طينية متطامنة غير خصبة، بل إن بعضها أجرد من النبات ماعدا الأماكن المطمئنة بينها وكأنما منظرها وسط الجزيرة العربية في وقت الربيع المبكر.

وقف الموكب عند السد فصعدنا إلى مكان مرتفع نوعًا يطل على البئر العميق الذي حفروه لكي يضعوا فيه المولدات الكهربائية التي يجب أن يسقط الماء عليها سقوطًا قويًا ولكن بصفة منتظمة مرتبة بطبيعة الحال، وذلك من بحيرة مائية كبيرة سدوها من كل جهة إلا من جهة المولدات وقد وجدنا مدير المحطة وهو روسي أصيل في انتظارنا فانبرى يحدثنا عن المشروع فكان مما قاله:

البئر العميق الذي فيه
مولدات الكهرباء على السد

لقد بدأ العمل به في عام ١٩٦٢ وذكر أنهم كانوا يبحثون عن موقع مناسب لإقامة السد حتى عجز المهندسون والمختصون عن ذلك إلى أن أرشدهم أحد الأهالي إلى هذا الموضع فوجدوه مناسبًا.

وقال : إن المستشاريين المهندسين في بنائه كانوا قبل الحرب من أمريكا وإيطاليا، ولكنهم بدأوا الحفر بعد ذلك أي في عام ١٩٦٢ في مكان المولدات وفي عام ١٩٧٠م بدأوا البناء في السد وفي عام ١٩٧٤م بدأ تشغيل المولدات الكهربائية.

وذكر أنهم قد استعادوا كل النفقات التي أنفقت علي السد في عام ١٩٨٣م، والآن يعتبر كل ماينتجه بمثابة الربح أوالمجان، وقال إنه ينتج الآن الكهرباء، كما تنتج البحيرة مقادير كبيرة من الأسماك.

فوق محطة توليد الكهرباء

وذكر أن البئر والحفرة العميقة التي حفرت بجانب السد وفيها المولدات الآن يبلغ عمقها مائتي متر والواقع أننا شاهدناها ولانعتقد أنها تقل عن ذلك العمق.

وذكر أن سكان المنطقة يشربون من هذا السد، وزعم أنه أحد سدود عشرة في العالم يمكن شرب مائها بدون تصفية لنقائه.

صورة تذكارية مع المرافقين فوق البحيرة

وتقع بحيرة السد في حومة منخفضة بين الجبال وبعض التلال الأخرى أي في مكان محاط بها وقال إنهم لايعانون مشكلة في تموين هذه البئر بالماء.

ويسمى المكان (صولاق) أي الماء الجاري لأن صو بالتركية ماء، ولاق: جار. وسمي بهذا الاسم لأنه أقيم في الأصل في وجه نهر هنا يسمى (صولاق).

صورة تذكارية في مرتفع يطل على مدينة محج قلعة (من اليمين إلى اليسار) نائب المفتي في داغستان فالدكتور سعيد محمد باديب فالمفتي الشيخ محمود كيكي فالمؤلف ثم الأستاذ سالم سالم

مسجد محج قلعة :

ذهبنا مع المغرب إلى جامع (محج قلعة) ويسمونه مسجد محج قلعة وذلك في السابعة والنصف من أجل الصلاة فيه ولم تأت سيارة الموكب المعتاد وإنما حملتنا سيارات لإخواننا المسلمين قالوا: إنهم يريدون أن يسعدوا بذلك وقد ركبت في واحدة منها قد ألصقت عليها ورقة مكتوب عليها بخط جميل (الله أكبر).

ووجدنا عند باب المسجد جماعة من المسلمين قد تجمعوا ينتظرون قدوم الوفد، ودخلنا بعد السلام عليهم إلى المسجد من باب في مقدمته يسمى: (باب الجمعة) وصلينا في الصف الأول وقد كتبوا علي المحراب الجملة التالية: «كلام الدنيا في المسجد حرام» وكتبت الشهادتان على المحراب وقد علقوا سبحًا - جمع سبحة في

جدار المسجد الأمامي مما يلي المحراب من أجل أن يستعملها من يريدون عد التسبيح والتحميد والتكبير بها.

وصلنا المسجد قبل أذان المغرب فوجدناه مليئًا بالمصلين وأخبرونا أن ذلك لسببين اثنين أولهما: معرفة الإخوة المسلمين بقدومنا والثاني: أن هذه الليلة عندهم هي ليلة البراءة كما يسمونها وهي ليلة النصف من شعبان ومن عادتهم أن يحتفلوا بها بالدعاء وقراءة بعض الإذكار.

وقال أحد الإخوة من المرافقين وهم من أئمة المساجد هنا إن هذه فرصة لحضور الدعاء في هذه الليلة، فقلت له: إن الاحتفال بها ليس له أصل في الشرع الشريف ولم ينقل عن السلف الصالح، والواجب علينا أن تتبع ما ورد في القرآن والسنة وليلة النصف من شعبان لم يرد ذكر للاحتفال بها أو تفضيلها على باقي ليالي السنة في آية قرآنية ولا حديث صحيح، فضلاً عن أن يكون قد ورد ما يحث على إحيائها بالذكر ونحوه.

وذكرت بهذه المناسبة ليلة براءة أخرى وهي ليلة النصف من شعبان صادفتها في مسجد آخر من مساجد المسلمين في حي مدينة بعيدة وهي مدينة جوهانسبيرج في جنوب إفريقية، وكان ذلك المسجد في حي من أحياء الملونين، حسب التقسيم الذي تسير عليه حكومة جنوب إفريقية العنصرية في تمييز الناس بعضهم عن بعض حسب عناصرهم وقد ذكرت ذلك في كتابي المطبوع: «مشاهدات في بلاد العنصريين».

وتأهبت للاعتذار للشيخ محمود كيكي عن المشاركة غير أنه عرف أننا لانحتفي بمثل هذه الأمور فلم يعرض علينا حضورها وعرفت بعد ذلك أنه لم يكن يتوقع منا أكثر من الصلاة في المسجد والتعرف على الاخوة المسلمين والقاء خطاب فيهم.

وقبل الصلاة قدم الشيخ محمود كيكي أعضاء وفد الرابطة إلى المصلين معرفًا وشاكرًا لزيارتهم ثم تحدثت إليهم كالعادة معرفًا بالرابطة واعمالها وموضحًا هدف زيارة الوفد لهم ثم حثهم على التمسك بالإسلام وتربية أولادهم على

الإسلام وتعاليمه حتى تكون أجيالهم اللاحقة خيراً من أسلافهم ويكون خلفهم عوناً عاملاً على إعادة النشاط الثقافي الإسلامي الذي كان مزدهراً في هذه البلاد.

ثم دعوت الله عز وجل أن يمن عليهم بزيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج. وأن ييسر لوفد الرابطة الإجتماع بهم مرة ثانية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم في بلادهم داغستان.

المأدبة الحافلة :

جانب من مائدة الشيخ محمود كيكي على يمين المؤلف وعلى يساره المفتي طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لسيبريا والقسم الأوربي من الإتحاد السوفييتي

بعد انقضاء الصلاة ودعنا الأخوة المصلين الذين لم يستطع أكثرهم مصافحة الوفد بسبب كثرتهم وذهبنا مباشرة إلى منزل الشيخ محمود كيكي رئيس الادارة الدينية لشمال القفقاس ويسمونه المفتي مثل سائر رؤساء الإدارات الدينية ماعدا

رئيس الإدارة الدينية لما وراء القفقاس الشيخ الله شكر باشا زاده فلقبه شيخ الإسلام وليس المفتي فوجدنا المائدة خاصة منفردة للمرافقين من غير المسلمين وهم الذين يسمونهم المرافقين الإعلاميين وهم من الروس كالعادة في الموائد التي سبقتها.

البعثة الإعلامية الروسية المرافقة للوفد على مائدة منفردة في بيت الشيخ محمود كيكي

وجدنا مقدمات الطعام المعهودة على الموائد قد ضاقت بها، ومعها حملان - جمع حمل - وهو ولد الضأن الصغير كاملة جاهزة للأكل وهي محشية بشئ يشبه الأرز وليس به.

وبعد أن نلنا مما على المائدة رفعت صحونها وأوانيها بما فيها ثم جاؤا بأصناف أخرى غيرها وتكرر هذا أكثر من مرة حتى العسل المصفى جاؤا به بمثابة الحلوى لأنه كان متجمداً، ومع ذلك اعقبوه بأنواع من الحلويات.

وعند الفراغ من الطعام نهض مضيفنا المفتي الشيخ محمود كيكي فألقى كلمة مكتوبة بالعربية أحببت أن أورد نصها هنا من أجل الفاظها وعباراتها وطريقة صياغتها وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمر عباده أن يتعاونوا على البر والتقوى ولايتعاونوا على الإثم والعدوان والصلاة والسلام على خاتم الرسل محمد الذي بعثه الله بخير الأديان وعلى آله وصحبه ومن إتبعهم باحسان. أما بعد:

فأنه لشرف عظيم لنا أن نتقبل ونضيف على أرض وطننا داغستان هذا الوفد الكريم من المملكة العربية السعودية من جوار بيت الله الحرام برئاسة شخص عزيز علينا الشيخ محمد بن ناصر العبودي، إسمحوا لي أيها الاشقاء أن أعربكم باسمي شخصيًا وباسم جماعات المسلمين التابعين بادارتنا الدينية نيابة آيات الشكر والتقدير على ما أبديتم رغباتكم لزيارة بلادنا وتجشمتم من مشقات ومتاعب في سبيل الوصول إلينا وتفقد احوالنا وأنا على يقين بأن هذه الزيارة المباركة ستؤتي ثمارها ونتائجها المرضية بعون الله فلتكن خير طليعة ومبدأ رائعًا لوحدة صفوفنا رغمًا لأنف ألد أعدائنا.

قدمتم خير مقدم أيها الضيوف الكرام وجئتم خير مجيئ بارك الله فيكم وفي أعمالكم وأعماركم، فنحن وأنتم أيها الأشقاء الكرام أبناء وأحفاد أولئك الأمجاد الذين ذاع صيتهم في مشارق الأض ومغاربها بحب العدالة والاستقامة وتحابوا في الله وتعاونوا على البر والتقوى وها نحن اليوم يجب علينا بكل وسائل الحكمة والمواعظ الحسنة أن نمهد الطريق من جديد لقرب بعضنا بعضًا وإعادة العلاقات الأخوية بيننا التي تقطعت وتغيرت فترة من الزمن بطوارق الأيام وحوادث الأزمان.

ونحن معترفون حق الاعتراف لتلك المجهودات المباركة والخدمات الجبارة التي تقدمها رابطة العالم الإسلامي في مجال تطور حياة المسلمين الروحية والمعنوية في العالم وخاصة نقدر تقديراً عالياً بالمساعدات السخية لضيوف الرحمان في موسم الحج ليؤدي كل منهم نسكهم بتمام وكمال ومن بينهم حجاج بلادنا تنزلونهم منازل الشرف والاحترام من بين سائر الحجاج وتستقبلونهم بحفاوة وترحاب وأنا لذلك شاهد عيان والله سيجازيكم عنا خير جزاء لابد لي أن أبدى الشكر الجزيل للمملكة العربية السعودية الشقيقة وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز وكل هذه المعونات والعنايات الأخوية لابد وأن يكون بتوجيهاته حفظه الله ونسأل الله تعالي لجلالته مع شعبه الباسل التوفيق والنجاح في خدمة الإسلام وسعادة المسلمين.

وبإذنكم الآن اريد أن أحدثكم قليلاً عن مسلمي ناحيتنا وعن نشاطاتهم الدينية ولعل شخصياتكم كرجال الدين معتنون بذلك.

يرجح تاريخ طلوع الأنوار الإسلامية إلى داغستان إلى عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وذلك في سنة ٣١ الهجرية ومنذ ذلك الحين فإن شعوبنا يدينون بدين الإسلام والأغلبية الساحقة منهم على مذهب الإمام الشافعي في الأحكام الشرعية وفي العقائد الدينية علي مذهب الإمام ابي الحسن الاشعري، ورغم تعدد شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم وعاداتهم وطرقهم ومذاهبهم، فهم بريئون عن النعرات والعصبيات الممقوتة التي ينهى عنها الدين الإسلامي والبيئة الاشتراكية، يعيشون في وئام ووداد كأنهم شعب واحد تحت ظلال القانون الواحد ونظام واحد.

الوفد على مائدة الشيخ محمود كيكي

وبعون الله تعالى وبالجهد المستطاع للإدارة الدينية بدأ تطور واضح في حياتنا الدينية في السنوات الأخيرة مثلاً فتحت وبنيت مساجد مثالية جديدة في ناحية شيشان انقوشيا وبدأت اصلاحات وتجديدات في المساجد الداغستانية وكذلك نجتهد لئلا نتأخر عن قافلة المسلمين من جهة العلم والمعرفة وفي اصلاح مافسد من الدين الحنيف والأخلاق المحمدية وأخذ الشباب على عاتقهم اليوم القيام بهذا العمل المقدس بإلهام منه تعالى وعشرات منهم يدرسون في المدرسة الدينية في بخاري والمعهد الطاشنكدي وآمنون ومطمئنون بالوعد الآلهي القائل، ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لايشركون بي شيئًا﴾ صدق الله العظيم سورة النور(٥٥).

وللاسف في هذه الفترة الزمانية القصيرة لاتستطيعون أن تطلعوا إلا علي قليل عن حياة مسلمي ناحية القفقاز الشمالي فإن جماهيرهم يقطنون في القرى والأرياف النائية وللتعرف عن كثب باحوالهم نحتاج إلى عشرات أيام نرجو من رابطة العالم الإسلامي أن تأخذ في عين الاعتبار مسلمي أوديتنا وجبالنا وتكثر الزيارات إليهم مرات وكرات وتكرر اللقاءات معهم حينًا بعد حين وبذلك يفرح المؤمنون وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سر مؤمنًا فكأنما سر الله عز وجل ومن عظم مؤمنًا فإنما عظم الله عز وجل وفي الختام أخوة الإيمان ان المصارعة بين الخير والشر بين العدالة والظلم لاتزال قائمة على قدم وساق وموجودة من لدن خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة مادام هذا الصراع مستمرًا في هذا العالم سنكون إن شاء الله في مقدمة المدافعين عن العدالة والخير ذائدين عن السلام والصلح وما توفيقنا إلا من عند الله عليه توكلنا وإليه المآل. نسأل الله تعالي أن يكف عنا من يريد بنا سوءًا فإنه أشد يأسًا وأشد تنكيلاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ثم نهض أحد المشايخ من أئمة المساجد وهو الشيخ (أبو الحسن محمد بشير يلدر خانف) وهو الإمام والخطيب في جامع مدينة خساويورت التي لم نستطع زيارتها بسبب ضيق الوقت وكان يرافقنا طيلة بقائنا في داغستان فألقى الكلمة التالي نصها:

بسم الله الحمن الرحيم

الحمد لله نصر دينه ووعد عبده وأعلى كلمته والصلاة والسلام على جميع أنبيائه ورسله وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه ومن دعا بدعوته إلي يوم الدين.

أصحاب المعالي أصحاب السماحة أصحاب السعادة أصحاب البركة، وعلى رئيس وفد السعودي الشيخ الأستاذ محمد ناصر العبودي وسماحة المفتي طلعت

تاج الدين ومفتي شمال القفقاس الحاج وغيره من الضيوف الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

– أما بعد –

فإننا ننتهز هذه الفرصة الثمينة القصيرة لنقدم لكم ومن خلالكم إلى جميع المسلمين السعوديين، أطيب التحيات وأفضل التمنيات من مسلمي شمال القفقاس عامة ومسلمي مدينة (خساو يورت) خاصة. إننا نعبّر الشكر والامتنان لكل من قدم لنا مساعدة في إتاحة هذه الفرصة السعيدة التي نتمتع فيها برؤية إخواننا السعوديين أول مرة في داغستان، مشنّفين آذاننا بالحديث الأخوى معكم إننا نستقبلكم دائماً بحب واعتزاز وتقدير عظيم، إذ أنكم ضيوف أعزاء من وطن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

فعلى الرغم من أن شمال القفقاس وداغستان تبعد ألوف الكيلو مترات عن شبه جزيرة العربية إنتشر الدين الإسلامي بسرعة مذهلة في بلاد العالم، وانتشر أيضاً في أراضي الإتحاد السوفيتي لأول مرة في أذربيجان وداغستان وكان ذلك في أوائل القرن السابع الميلادي أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووصل الدين الحنيف إلى هذه البلاد أولاً إلي مدينة دربند العريقة، وفي أثناء إنتشاره قد أستُشهد في الغزوات والفتوحات الإسلامية حوالي أربعة آلاف من المسلمين العرب، ومنهم الأربعون الشهداء القواد دُفنوا في مقبرة قرب المدينة دربند، وهي محفوظة معروفة يزورها المسلمون من شتي بلادهم الآن، وتُسمي المقبرة بغرق لار، معناها الأربعون الشهداء القواد العرب، ومن بينهم أمير العسكر الشهيد عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي وأخوه الشهيد سلمان بن ربيعة الباهلي وسراقة بن عمرو.

وأثناء الغزوات مات سراقة بن عمرو في دربند فأمر عمر بن الخطاب مكانه عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي، وكان يُرى علي قبرهما نور فسُمّيا الأمير ذي النورين وكذا حذيفة بن أسيْد وبكير بن عبدالله رحمهم الله ولكي يثبت الإسلام في حياة سكان هذه المدينة أمر مسلمة بن عبدالملك بتقسيم المدينة دربند إلى سبعة أحياء وبناء مسجد في كل منها.

وهكذا بنيت المساجد فيها بأسم حاضر وفلسطين ودمشق والموصل، وغيرها وبنى أيضاً مسجداً جامعاً واسمه (جمعة مسجد) حالياً وزرناه البارحة، وكان بناؤه في عام ١١٥من الهجري.

إن المسلمين في شمال القفقاس والداغستان يحبون ويحترمون هذا المسجد ويعتبرونه مركزاً دينياً، ولهم حقوق في أداء الشعائر الدينية فيه.

وبعد مرور الأزمنة والعصور كان المسلمون يتعطلون في تنفيذ أوامر الله ونواهيه، وكانوا أيضاً يتهاونون في الإطاعة لأولى الأمر منهم، وإضافة على ذلك ظهر القيصر في روسيا وأصبح الإسلام في عهده دين الشعوب المضطهدة، وكانوا يعانون كثيراً من الاضطهاد الاجتماعي والقومي، وكانت تنتهك عاداتهم وتقاليدهم أما بعد الثورة منحت الحكومة كامل الحقوق للمسلمين لتقرر مصائرها بنفسها وقدمت أيضاً أقصى العون لتطوير اقتصادها ورفع مستوى حياتها.

ففي السنة الثانية والأربعين بعد ألف ومأتين هـ لما أراد الله تعالي تجديد دينه قام رجل ليس له عشيرة ولاشوكة يأوى إليهم وهو العالم المسدّد الإمام غازي محمد الكمراوي الأواري قدس سره، ودعاهم إلى إلتزام أحكام الشريعة والعمل بها، ومدة خلافته ست سنوات واستشهد في عام ١٢٤٨هـ فلما استشهد الإمام غازي محمد إستخلف العلماء ووجوه الناس حمزة الترتلي الأواري مقامه، فدار في ولايته ينصح ويعظ ويأمر وينهى، فلما رأى منهم عدم قبول أمره ونهيه في الشريعة قاتل ضدهم حتى أن استشهد في يوم الجمعة بالمسجد ومدة خلافته سنة ونصفها وذالك في سنة ٢٥٠ هجرية.

وكان حمزة رحمه الله قد عهد بالخلافة بعده إلى الشيخ شامل الكمراوى الأوارى، ومدة خلافته خمسة وعشرون عاماً، ففي سنة ست وثمانين بعد ألف ومأتين أرسله القيصر مع عياله إلى بيت الله الحرام، فانتقل قدس مسره إلى حضن رحمته ليلة النحر من سنة ١٢٨٧هـ، ودفن في جنة البقيع وراء القبة العباسية في المدينة المنورة.

الحمد لله حتى الآن لايزال مسلموا الشمال القفقاس يؤدون شعائر الدينيةببركة الإسلام وقواده، ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى على هذه النعم التي لاتُحصيها. لقد كانت الروابط الأخوية الإسلامية بين علماء أهل الحجاز وبين علماء الداغستان ونحن أيضًا إن شاء الله سنمتِّن ونحسِّن ونعود إلى تلك العلاقات القديمة ونتمنى أن لاتنقطع هذه الروابط فيما بيننا لمصلحة الدين والمسلمين إلى يوم الوعد والوعيد، ولايليق الأخ المسلم أن ينسى أخاه المسلم ولو كان هو في مشارق الأرض ومغاربها.

وأخيرًا أيها الضيوف الأعزاء اسمحوا لي أن أقدم إلى حضراتكم موجزًا عن ترجمة حياتي وأنا الآن أعمل إمامًا وخطيبًا في مدينة خساوبورت وهي من أكبر المدن بعد العاصمة، تخرجت من المعهد الإسلامي باسم الإمام البخاري بطشقند ورجعت إلى حيث أعمل فيه الآن لخدمة الدين والمسلمين.

كلمة مؤرخ داغستاني :

ثم أعقبه رجل آخر تكلم بالعربية اسمه محمد بن نور محمد الداغستاني ذكروا أنه طبيب ومؤرخ وأنه اشتغل بالتدريس في معهد التاريخ ١٧سنة.

المؤرخ الشيخ محمد نور بن محمد يلقي كلمته

وهذا نص كلمته :

من سعادة المسلمين وعلمائهم في الإتحاد السوفييتي حضور رهط من أعلام علماء الحرم المكي إليهم ضيوفًا وهم خدام (رابطة العالم الإسلامي) يرافقهم العلامة الشيخ نائب رئيس رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وهم حضروا من تلك الأراضي المقدسة التي هي مهد الحضارة الإسلامية، والثقافة التقدمية، من البلاد العربية السعودية، ووصلوا إلى مدينة (محاج قلعة) وها أنا ذا بين ايديهم احييّهم بتحية قلبية ممثلاً من جميع المسلمين وعلمائهم.

السلام عليكم وعافاكم الله تعالى.

ايها السادة :

فأنتم حضرتم إلينا بحمل مشقات الأسفار حبًا للقائنا، لاجل إحياء روابط قلوبنا حول رابطة العالم الإسلامي، ولمفاوضة البحوث البارة لصالح البشرية في وقت كنا محتاجين إليكم لايجاد سبيل للمدافعة عن السلام العالمي، وتأييد روابطنا الإسلامية اعلاء لكلمة الله وحده وتأكيداً للسلام العام العالمي على الأرض رضي الله عنكم وبارك لكم في اعمالكم وبحوثكم وزيارتكم.

فنحن المسلمون جميعًا تؤيدنا الروابط الإسلامية ومن آكدها هو أُخوتهم الايمانية فيما بينهم كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم (إنما المؤمنون إخوة) وكما قال رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور (لايؤ- -كم حتي يحب لاخيه مايحبه لنفسه ويكره له ما يكرهه لنفسه) وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

ففي هذه النصوص روابط الأخوة العامة المؤكدة في المسلمين وفيها كل المثل العليا والاعتقاد الصحيح والاخلاق الحسنة وكل خير وبركة وسعادة ورابطة شديدة.

ومنها أن قلوب جميع المسلمين منجذبة بالحب الأكيد إلى حرم مكة والكعبة المشرفة ويتوجهون إليها في صلواتهم المفروضة في كل يوم وليلة خمس مرات إذ هوقبلتهم ففي هذا رمز أكيد أنهم يستقبلون دائماً إلي قبلة واحدة إذ الصلاة الموقوتة من أفضل العبادات وعمادها وهي حد يمنع بها المصلين عن الفواحش والمنكرات كما قال الله تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

ومنها الحج إلى بيت الله تعالي في الحرم المكي كل عام وهو رمز للرابطة العامة وعلامة للوحدة الاجتماعية العامة بالسلام العام ليعود الحجيج من هنالك مغفورين برأي صاحب موحد وحرية وعدل مؤيدين بالرابطة العامة الإسلامية إلى أوطانهم فيكونون فيها كالمثلين لنشر أخبار الرأي العام الأخوي في أوطانهم بين المسلمين.

ومنها أن جميع المسلمين مأمورون إذا مارأوا منكراً أن يغيروه بأيديهم قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم (من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه).

فأي منكر أعظم وأقبح مما يفعله الصهاينة المتوسعون في البلاد العربية من المنكرات العظيمة بالاحتلال والاستعباد وقتل النفوس وبكل ظلم واضطهاد. عدا ما يشتمل الآتين بالمناكير من أفراد المسلمين. فيجب على كل المسلمين الانكار على ذلك والسعى لاحباط أعمالهم الإفسادية. فالله يوفق المسلمين لذلك ويؤيد بعونه رابطتهم تحت راية السلام العالمي.

وان المسلمين في داغستان وجمهوريات القوقاز الشمالي يستنكرون بقلوبهم تلك المظالم الاستعمارية على الشعوب العربية وهم في الرد على أهدافهم الغاشمة يد واحدة برابطتهم القوية لاحباط مؤامراتهم الإفسادية والعجب من الأميريكيين من شن هجومهم على الجماهيرية الليبية في هذا الشهر من غير ما ذنب على الشعب الليبي الباسل، وأن جميع المسلمين في داغستان لايضطهدهم شئ في شيء، وهم أيضاً في رفاهية تامة في معاشهم يريدون السلام العام على الأرض.

وكانت في عدة قرى داغستان الشباب العرب المكيين والقريشيين كالذي كان في قرية (غازي قموق) عدة عائلات. ومنهن عائلة العالم والمرشد النقشبندي شيخ جمال الدين المتوفي في استانبول فى سنة ١٢٨٤هـ فإنه الرابع والاربعون في نسبه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فهو واولاد نسبه وعائلة نجم الدين الغازي قموقي وعائلة الشيخ المرشد سيف الله الباشلاري منهم أيضًا.

وقد هاجر من البلاد العربية إلى داغستان علماء أعلام فمنهم السيد أحمد بن السيد ابراهيم اليمني فإنه هاجر من اليمن إلى داغستان وسكن في غازى قموق ونشر العلوم العربية بمدرسته وألف هناك كتابه وفق المرادومات في غازي قموق في سنة ٨٥٤هـ.

وعلي بن محمد البغدادي الفقيه هاجر من بغداد إلى داغستان وسكن في قرية (ترغو) بجوار بلدة (محاج قلعة) وكانت له فيها مدرسة وانتشر العلوم بواسطتها مات في ترغو في سنة ١٠٠٣هـ.

وطائفة من مشاهير علماء داغستان ارتحلوا إلى البلاد العربية فتعلموا فيها منهم الإمام الفقيه محمد بن موسى القوروقي الذي تعلم في مكة في مدرسة الإمام المجتهد صالح بن مهدي المقبلي اليمنى مدة سبع سنين وألف أستاذه اليمنى كتابه (العلم الشامخ في إيثار الحق علي الآباء والمشايخ) لاجله وباسمه فعاد منها إلى داغستان وانتهى من علومه ومات محمد القوروقي في حلب في سنة ١١٣٩هـ.

ومنهم محمد شفيع الداغستاني فإنه في بغداد قرأ على الإمام المفسر الشهير أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي صاحب «روح المعاني» واجازه الآلوسى من عنده في علوم الفقه والحديث واجازته محفوظة عندي.

والشيخ المرشد النقشبندي الحاج محمد العبودي الاوارى هاجر من داغستان إلى مكة المكرمة وله مؤلفات أشهرها (كنز الدرر) سكن في مكة وأذن له وأجازه الشيخ سيد حسين جمل الليل المكي في الطرائق الست المشهورة ومات الشيخ الحاج محمد العبودي في مكة ودفن بالمعلى.

وهاجر السيد الحاج علي شكر حاجي الزاخولي القوبي بعياله إلي مكة ومات بها.

وكل من حج في عصرنا من حجاج داغستان وخاصة مفتينا الحاج محمود اخبرنا بانطباعاته الحسنة عنكم ويشكركم لما اكرمتموه ويحترم بقلبه (رابطة العالم الإسلامي).

وإن ذهبت أعد لكم روابط الإخاء الإسلامي التي بها تشتد روابط العربية وبلادهم لطال بنا الكلام فإنها كثيرة فبزيارتكم وحضوركم باشخاصكم الينا فرحنا وابتهجنا ونرجو من الله وحده التوفيق لنا ولكم لايجاد سبيل للسلام الدائم علي الارض ونسأل الله تعالى التوفيق لكل المناضلين والمدافعين عن السلام وأن يرزق لكم ولاعوانكم الصحة والعافية، والغلبة والنصر للشعوب العربية والإسلامية.

(محمد نور محمد الداغستاني الهاراكاني)

وقد شكرته باسم الوفد على هذه المعلومات ودعوت الله عز وجل أن يكون في أبناء أولئك العلماء من يعملون علي إحياء سيرتهم العلمية الإسلامية بالعمل على إحياء الثقافة الإسلامية والتمسك بأحكام وتعاليم الدين الحنيف.

ثم تطرق أحد الحاضرين إلى الخلافات العربية وقال إن الدول الإمبريالية والصهيونية تستغل المنازعات في ضرب لبنان واستبداد اليهود في الأرض المحتلة والقدس ثم الاعتداء الأمريكي على ليبيا والحرب بين العراق وإيران ودعا المذكور إلى نبذ الخلافات الجانبية والإتحاد والتعاون ضد الاطماع الإمبريالية ثم دعا الجميع إلى الإهتمام والعمل من أجل توطيد السلام في العالم.

وقد عقبت بالشكر والتقدير على كلمتيهما واشرت إلى أن رابطة العالم الإسلامي من خلال المؤتمرات والندوات التي تعقدها في مختلف بقاع العالم تدعو إلى وحدة المسلمين وتعاونهم ونبذ الصراعات الجانبية وتوحيد كلمتهم وصفوفهم لخدمة الإسلام والمسلمين ونصرة قضاياهم ثم قلت: إننا بصفتنا مواطنين سعوديين

نستطيع أن نقول إن حكومة المملكة العربية السعودية لا تألوا جهداً في جمع كلمة المسلمين وأنها أول من دعا إلى التضامن الإسلامي وتضافر جهود المسلمين وأن حكومة جلالة الملك فهد بن عبدالعزيز قامت بتطبيق سياسة التضامن الإسلامي مع المسلمين جميعاً.

ثم قدم الشيخ محمود كيكي الهدايا وهي فرو داغستاني سميك جداً، قالوا: إنه يلبس في سيبريا وأن من لبسه فإنه يستطيع ان يبيت في العراء في الشتاء من دون أن يحس بالبرد، ومعه قلنسوة أي (طاقية) داغستانية ثقيلة، وعصا ثمينة وخنجر مصنوع في محج قلعة كما أعطاني عصا ثمينة منقوشاً عليها اسم الملك فهد بن عبدالعزيز هدية رمزية من المسلمين في هذه البلاد وطلب مني إيصالها.

الشيخ محمود كيكي يخلع الفرو السميك على الدكنور سعيد محمد باديب (وبقيت الطاقية السميكة)

وقد التقط أعضاء الوفد صوراً تذكارية لهذه المناسبة.

وقد بادلته الهدية بهدية مثلها ومن ذلك للمفتي نفسه عباءة عربية مطرزة وساعة يدوية وسجادة صلاة وتمر من تمر المدينة المنورة ومصحف كريم فاخر الطباعة مطبوع في المدينة المنورة ولكبار الموجودين من المشتغلين بالعمل الإسلامي هنا ويكاد ينحصر العمل الإسلامي في إمامة المساجد هدايا أخرى مناسبة.

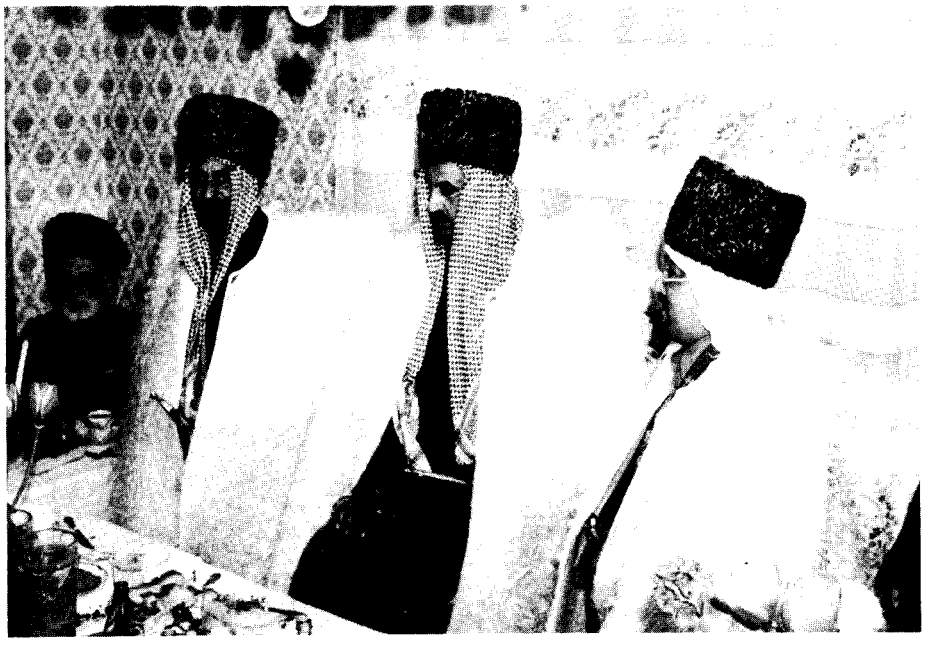

أعضاء الوفد بالملابس الشتوية الداغستانية

كما أهدينا للمساجد أشرطة مسجلاً عليها القرآن الكريم مع جهاز التسجيل.

يوم الخميس ١٥ شعبان ١٤٠٦هـ ٢٤ابريل ١٩٨٦م.

كنا في قاعة الفندق ننتظر بقية الرفاق لنتاول طعام الإفطار وإذا بنائبة رئيس الوزراء (حفيظة بنت محمد عبدالله) تأتي إلى الفندق وعليها ملابس محتشمة ومن

ذلك منديل ضاف قد غطت به رأسها وشعرها كما تفعل المسلمات هنا فسلمت علينا وهي عجلة وقالت: عندي ضيوف هنا، وبحثت حالها مع الحاضرين فذكروا أنها عضو في الحزب الشيوعي، وقال أحدهم: لكنها تصلي وعلق آخرون قائلين: إن من يصلي يفصل من الحزب فأمن الجميع على ذلك لما يعرفونه من حال بلادهم.

وقال أحدهم : ربما يستطيع أن يصلي سرًا فقلنا: الله أعلم بالسرائر.

وقد كان الجو في هذا اليوم أقل بردًا من أمس فسألناهم عما إذا كان يأتيهم صيف حار؟ فذكروا أن درجة الحرارة في الصيف قد تصل أربعين درجة في الأيام الشديدة الحر قالوا: وقد تتدنى درجة البرودة في أيام الشتاء القارصة إلى ٣٥ و٣٧ درجة مئوية تحت الصفر.

في متجر حكومي :

وقد كتبت كلمة حكومي للإيضاح للقراء الكرام الذين ربما لايتصورون أن نوجد متاجر حكومية في بعض الدول مع أن المتاجر في البلدان الشيوعية مثل سائر المرافق كلها حكومي.

وقد كنا انزلنا أمتعتنا من غرف الفندق وأودعناها سيارة شحن صغيرة مع أنه قد بقيت في البرنامج بقية ولكن رأى الأخوة أن تنهي ما تبقى لنا من عمل في داغستان ثم نواصل السفر إلى جمهورية (شيشان انقوش) مباشرة من دون أن نمر بالفندق.

وقد إختار لنا هذا المتجر مضيفونا الكرام وذكروا أن كثيراً من السياح يزورونه ويشترون منه مايروقهم ومن أهم مافيه مصنوعات يدوية داغستانية وتحف صغيرة وأشياء تذكارية وكلها من صناعة هذه الجمهورية ومن ذلك سجاد محلي ولكن ثمنه مرتفع جدًا فهناك سجادة صلاة قيمتها خمسون روبلاً أي مايساوي ٧٢ دولاراً بالصرف الرسمي، وهاون خشبي صغير بثمانية روبلات، وعصا بخمسة عشر روبلا وخناجر مزخرفة بـ ٩٧ روبلاً أي حوالي مائة وستين دولاراً.

على أن هذه الأشياء وغيرها مما في المتجر ليست فاخرة ولابذات شكل مميز، وهناك أقمشة وسجاد كبير.

ومن الملاحظ أن العاملات فيه وكلهن من المسلمات كن يرتدين لباساً ساتراً وعلى رأس كل واحدة منهن منديل كبير يغطي الرأس والكتفين كالذي رأيناه اليوم علي نائبة رئيسة الوزراء في الفندق. وتبين أنه جزء من لباس تقليدي لنساء هذه البلاد اللاتي هي من المسلمات.

المتحف التاريخي لداغستان :

يقع المتجر الحكومي علي شارع ملاصق لميدان كبير بل ربما كان أهم الميادين في (محج قلعة) يسمونه ميدان لينين ولينين كما هو معروف هو الزعيم الشيوعي الذي طبق الثورة الشيوعية بعد أن كانت نظريات لماركس وانجلز ولذلك يحتفي الشيوعيون به في كل البلدان التي يسيطرون عليها.

فأخترقنا ميدان لينين سيراً علي الأقدام للوصول إلى المتحف التاريخي لداغستان الذي يقع على هذا الميدان مباشرة ومررنا بتمثال للينين مقام في وسط الميدان وقد وضعوا عليه الزهور لمناسبة ذكرى ميلاده.

وعند باب المتحف استقبلتنا نائبة للمدير، وذكرت أن المدير سيحضر بعد قليل والقت مقدمة عن المتحف قبل التجول فيه قالت فيها :

إن هذا المتحف افتتح بعد الثورة وذلك في عام ١٩٢٣م وإنه الآن يشتمل علي مائة ألف معروضة أكثرها من داغستان وبعضها من غيرها وهي من العصر الحجري للأنسان حتى الآن.

وكان أول المعروضات حيواناً وطيراً محنطة منها اسماك من بحر قزوين أو بحر الخزر وطيور من داغستان وقد حنطوا نماذج منها واحاطوها ببيئتها الطبيعية أو مايقرب من ذلك ماعدا الأسماك فهي معروضة بطريقة سهلة.

ولو قارنا عرض هذه الطيور والأسماك المحنطة بمثيلاتها أو شبيهاتها المعروضة في البلدان الحرة لو وجدنا البون شاسعًا في طريقة العرض.

ومع ذلك فإن هذا المتحف مفيد جدًا وبخاصة لمواطني هذه البلاد الذين لايتيسر لهم السفر إلى الخارج ورؤية هذه الأشياء في غير بلادهم.

ومن الأشياء المهمة طيور محنطة من الطيور المهاجرة التي كانت تمر ببلادنا إبان هجرتها بين شمال الأرض وجنوبها في فصل الربيع والخريف وكان بنوقومنا يصطادونها ويرتفقون بها أزمان الجدب وقلة الطعام وادركنا صيدها بكثرة مثل الطائر الأصفر المسمى الصفارى ذكروا أن موطنه الأصلي مدغشقر والخواضير - جمع خاضور - وهو طائر أخضر اللون كان يأتي بكثرة وكنا نخرج لصيده.

ثم عرضوا صورًا مفيدة لمناطق مختلفة من جمهورية داغستان توضح الإختلاف الكبير فيها بسبب وجودها في جبال قفج - أي القفقاس أو القوقاز - ومن ذلك رسم لمجرى نهر لم نره وقمم مجللة بالثلوج ترتفع أربعة آلاف متر عن سطح البحر.

وعدد محنط من الأروى وهو الماعز الجبلي الذي يكثر وجوده في جبالهم هذه وصور ورسوم لما أحدثه الزلزال الذي ضرب بلاد الداغستان في عام ١٩٧٠م.

ومن البيانات التي ذكروها عن هذا الزلزال خرائط تبين الجهات التي ساعدت أهالي داغستان بعد الزلزال وهي من ٣٠ جمهورية وأقاليم داخلية، ومن بلغاريا فقط من خارج الإتحاد السوفييتي كما ذكروا.

ولبلغاريا ارتباط كبير بالإتحاد السوفييتي لأن طائفة من أهلها كانوا هاجروا في القديم من منطقة واقعة علي نهر الفولجا إلى مايسمى الآن بلغاريا التي عاصمتها صوفيا وأقاموا هناك فهم إذا يعتبرون أن لهم علاقة نسب قديمة بأهل المنطقة.

وربما كان هذا يفسر تعصب البلغاريين الحاليين للغة الروسية وضغطهم على المسلمين كي يتخلوا عن أسمائهم الإسلامية وقد ذكرت هذا كله في كتاب «خلف الستار العقيدي» عند الكلام على (بلغاريا).

وقد رسموا مازعموه حاجات الإنسان قبل ثلاثين ألف سنة في داغستان من أدوات حجرية ثم مخلفات من العصر البرونزي ثم أوان فخارية قديمة ذات قيمة تاريخية مهمة وأدوات من القرن الخامس الميلادي.

ثم نوهوا بمخلفات من العهد الإسلامي الذي دخل بلادهم في القرن السابع الميلادي ومن ذلك باب خشبي ذكروا أنه قديم.

حجر من جزيرة العرب :

ويصح أن يكون العنوان : «جالب التمر إلى خيبر» كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وانا من يهدي القصائد نحونا كستبضع تمرًا إلى أهل خيبرا

وذلك أنهم عرضوا حجرًا ذكروا أنه جيء به من جزيرة العرب وأن العرب حملوه معهم من الجزيرة عندما قدموا إلي داغستان، وعللوا ذلك بأن الذي حمله فعل ذلك لكي يكون شاهدًا لقبره إذا مات في هذه البلاد وذكر أحدهم اسم مسلمة بن عبدالملك القائد العربي المسلم الذي وجه الحملة الأولى إلى بلاد داغستان. وكيف لو كان من عادة أسلافنا العرب المسلمين أن يتعلقوا بمثل هذه القشور أن يحملوا الحجر من بلاد العرب إلى أرض داغستان التي يعني اسمها (بلاد الجبال) وهو اسم علي مسمى لكونها واقعة في بلاد القفج – القفقاس –.

وعند ما رأت الدليلة استنكارنا لهذا الأمر الذي يدل في الحقيقة علي سؤ التقدير والعناء – إن حدث – قالت: إن بعضهم ذكر أن قائدًا مسلمًا من القازاق أحضر هذا الحجر من جزيرة العرب من أجل أن يجعل شاهدًا على قبره تبركًا بحجارة جزيرة العرب.

وهذا على غرابته أقرب إلي مقتضى العقل الذي يعرف من حال بعض الإخوة المسلمين الذين تقع بلادهم بعيدة عن جزيرة العرب ويزورون فيها المدينتين المكرمتين : مكة المكرمة والمدينة المنورة فربما كان أحدهم ذا نفوذ أو قدرة مالية مكنه ذلك من حمل حجر من المدينة المنورة أومن مكة المكرمة ليكون شاهداً لقبره إذا مات محبة منه في بلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية.

مخلفات إسلامية :

ومن المخلفات التي ذكروا أنها من عهد المسلمين عندما فتحوا هذه البلاد دروع وأسلحة ومفاتيح عربية ونقود إسلامية يسمونها عربية وهناك مخلفات عديدة للعرب.

وعرضوا مخططاً لمنطقة من سور قلعة دربند أو (باب الأبواب) التي فتحها العرب المسلمون فذكروا ان طول هذه القطعة من السور ثمانية عشر متراً وعرض جدارها أربعة أمتار من الحجارة الكبيرة المحكمة البناء ومع ذلك اقتحمها العرب وفتحوها في ذلك الوقت المبكر.

وقلت في نفسي : إين نحن من هذه الأمجاد؟

وأجبت – في نفسي أيضاً – على هذا السؤال بجملة : واخجلتاه من التاريخ ولم أزد على ذلك.

وقد ذكروا بعد ذلك أن دربند احتلها بطرس الأكبر قيصر روسيا ثم ضمت إلى روسيا القيصرية عام ١٨١٨م.

حركة الإمام شامل :

ذكروا في المتحف أنه قامت حركة استقلالية تحت راية الإسلام عملت على تخليص البلاد من الحكم القيصري الروسي على يد ثلاثة زعماء أشهرهم الإمام شامل.

هكذا قال لنا مدير المتحف باللغة الروسية وكان الإخوة المرافقون يتناوبون الترجمة إلى العربية وذلك أن مدير المتحف كان قد حضر أثناء تجوالنا واسمه (رمضان بن يوسف) من أبناء المسلمين وقيل لنا بعد ذلك إنه نائب المدير.

والغريب في الأمر أنهم لم يتحرزوا من ذكر الاحتلال الروسي القيصري ولا من ذكر تاريخ الحركة الإستقلالية ضد روسيا.

وهذا من دهاء الشيوعيين الروس ومن ذكائهم فهم أرادوا أن يوحوا للناس بأنهم مثلهم يكرهون قياصرة الروس ويأبون سياستهم في ضم البلاد وأن البلاد الآن ليست منضمة إلى روسيا وإنما تؤلف معها إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية مع أن الأمر لم يختلف فيما يتعلق بضم داغستان إلى روسيا في زمن الشيوعية عما كان عليه زمن القياصرة، فزمام الأمر في البلاد للحزب الشيوعي الذي تديره اللجنة المركزية للحزب التي يقع مقرها في موسكو ويهيمن عليها الروس.

ولاتملك بلاد داغستان كسائر الجمهوريات الأسمية الداخلية من أمرها شيئًا إلا أمورًا داخلية لاتقدم ولاتؤخر في تقرير مصير البلاد.

وقد خصصوا ركنًا كاملاً لمخلفات الإمام شامل في المتحف ومنها الأوسمة التي تقلدها ولباسه من الجباب – جمع جبة – وغيرها وسيفه الذي نقشت عليه آيات قرآنية كريمة، ومنها ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ والآية الكريمة الأخرى ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ والبسملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

وما يتعلق بفرسه من السرج والركاب والهدايا التي قدمت إليه أثناء أسره وابنه وبقية رفاقه في كالوفا في روسيا.

ومن أهم الرسوم المتعلقة بالشيخ شامل لوحة تمثل كيفية وقوعه في الأسر وهي مأخوذة من واقعة أسره الحقيقية أي عندما وقع في أسر قيصر روسيا.

وتمثال لنائب الشيخ شامل واسمه (حجي مراد).

تاريخ محج قلعة :

في المتحف ركن يوضح تاريخ عاصمة الجمهورية مدينة (محج قلعة) وأن أولها كان قلعة تعرف بهذا الاسم العربي (قلعة) وقبل ١٥٠ سنة كان سكانها ثلاثة آلاف شخص معظمهم من الجيش أما الآن فإنها وضواحيها تضم ٣٥٠ ألفًا كما أخبرنا نائب المدير.

ونسبتها إلى رجل اسمه (محمد علي) وهو أحد الثوار المسلمين الذين ثاروا على قيصر روسيا وينطق باسمه تحريفًا (محج) وإذًا يكون معنى اسم المدينة (قلعة محمد) وبتقديم المضاف على المضاف إليه يصبح (محمد قلعة) وبلهجتهم (محج قلعة) أو (محج كالاه) عند عامتهم.

ثم ذكروا مرحلة الثورة التي يريدون بها الثورة الشيوعية وأنها حدثت في هذه البلاد الداغستانية عام ١٩٢٠م واستقر الحكم للشيوعيين بعد ثورة دامية سفكت فيها دماء كثيرة.

وذكروا حسبما هو مرسوم هنا أن أول عمل بعد الثورة الشيوعية هو حفر قناة للمياه تمتد مائة كيلو متر.

وفيما يتعلق بما قدمته جمهورية داغستان أنها أرسلت مائة وعشرة آلاف شخص أسهموا في الدفاع عن الإتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية وقد قتل منهم مابين ٣٠ إلى ٤٠٪.

الزراعة والثقافة :

بعد حديث المتحف عن التاريخ والسياسة دخلنا إلى غرفة كبيرة اسموها غرفة الزراعة لم نر فيها مايستحق التنويه ثم غرفة أخرى أسموها غرفة الثقافة وفي هذه هدايا للمتحف من دول أخرى وسجاد رسمت عليه صور للينين.

إلى بلدة تارغو :

من المتحف انطلق موكب وفدنا إلى بلدة (تارغو) وهي بلدة جبلية واقعة في جبال القفج – القفقاس – وهي من ضواحي مدينة محج قلعة.

ووصلنا القرية بسرعة لأنها غير بعيدة واخترق الموكب زقاقًا بين بيوت مبنية بالطين وبعضها بناؤه طيني رث مما ذكرني ببيوت طينية رأيتها في أماكن من العالم منها بيوتنا القديمة قبل الرخاء الاقتصادي الحاضر في بلادنا ومنها بيوت طينية رأيتها في مدينة (صوكوتو) في شمال نيجيريا وهي مقر أمير المؤمنين الخليفة كما يسمونه ويريدون به خليفة الإمام عثمان بن فودي الذي أقام دولة إسلامية حقيقية في شمال نيجيريا استمرت حتي قضى عليها الاستعمار الإنكليزي فبقي منها الاسم حتى الآن.

وبيوت طينية في الأحياء الداخلية من مدينة (أورومسي) عاصمة تركستان الشرقية التي يسميها الصينيون (سنيكيانج) وإذا كان القارئ الكريم يود الاطلاع على الحالة الحاضرة لتلك البلاد فإنه يمكنه أن يقرأ كتابي التي ألفته عما شاهدته فيها بعنوان: «في مهد الترك».

إلا أن البيوت التي في الشارع العام في قرية (تارغو) هذه هي محسنة بالبياض وبعضها مقام مما يشبه الإسمنت وجميعها ذات سقوف مسنمة أو ممالة إلى جانب واحد من أجل أن تنزلق عنها الأمطار والثلوج.

مسجد تارغو

ووجدنا طائفة من المسلمين من أهل القرية مجتمعين حول بيت متولي المسجد القريب من مسجد القرية وذلك لمعرفتهم بأن الوفد سيتناول طعام الغداء في بيته.

عند الوصول إلى بلدة تارغو

ولاحظت أنهم على درجة عظيمة من صفاء اللون واستقامة التقاسيم في الوجوه، وعدم الثقل في الأجسام مما يعني أنهم على جانب من الجمال.

رحب بنا متولي المسجد الأخ (قازاق بيه بن فخر الدين) وصعدنا فوراً إلى الطابق الأول وهو العلوي من البيت فوجدنا المائدة معدة حافلة بالمقدمات التي من أهمها الكافيار الثمين، وكنا قد أكثرنا منه حتى أصبحنا لانسرع إلى أكله رغم غلاء ثمنه وندرة وجوده في خارج بلادهم.

أطفال ونساء شاركوا في أستقبال الوفد

وقد جعلوا للمرافقين الروس الخمسة مائدة منفردة كالعادة أما مائدتنا فقد جلس عليها معنا طائفة من الإخوة المسلمين من أهل هذه المدينة إلى جانب المرافقين في الرحلة كلها والذين انضموا إلينا في جمهورية داغستان خاصة، وعلى رأسهم المفتي الشيخ (محمود كيكي).

عند الوصول إلى بيت متولي المسجد في تارغو

وبعد الغداء السخي بل الشهي الهنيء انتقلنا إلى مسجد تارغو، وذلك لأداء صلاة الظهر وللتعرف على الإخوة المسلمين الذين كانوا قد اكتظ بهم المسجد.

على مائدة الأخ (قازاق بيه بن فخر الدين) متولي المسجد

وقد رأينا التأثر العظيم واضحًا على وجوه الناس من رجال ونساء وحتى الأطفال والصبيان قد تجمعوا، وكان الرجال وبخاصة الكبار منهم يسارعون إلى محاولة لمس أي شيء يصلون إليه من ثياب أعضاء الوفد إذا لم يتمكنوا من مصافحتهم بسبب الزحام.

جانب من المستقبلين

عند مسجد تارغو

وكنت أرجو الاخوة المرافقين والقائمين عل البرنامج أن يتيحوا الفرصة للإخوة المسلمين ولنا للمصافحة وكنت أدعو لمن أصافحه وأجامله فهذه فرصة لرؤيتهم لاندري أتسنح مرة ثانية أم لا.

وبالنسبة للإخوة المسلمين في هذه البلاد، فإن عواطفهم هذه هي عواطف صادقة مبعثها المحبة الجياشة لإخوتهم في الدين الذين انقطعت الصلة المادية فيما بينهم وبينهم أزمانًا طويلة، ولم يصلهم منهم أي نفع مادي، أو حتى اية إشارة إلى ذلك.

عند مسجد تارغو مستقبلون في الشرفات بعد أن امتلأت الشوارع المحيطة بالمسجد

وقلت في نفسي ولاخواني من أعضاء الوفد إن هذه العواطف هي الغالية الثمن، لأنها خالية من أية إرادة لنفع مادي، أو مايقرب من المادة، وإنما هي لمحبة خالصة لوجه الله، ومثلها لا يمكن جلبه ولا إيجاده في النفوس إلا بهذه المثل الدينية العليا، فلو جمعنا كل مال الدنيا لما استطاع أن يوجد مثل هذه العواطف الجياشة الخالصة المخلصة.

وقد أردت الوضوء في المسجد قبل الصلاة، فرأيت محلات الوضوء فيه نظيفة وإن كانت قديمة الطراز.

ورأيت فيها ما كان يضعه الأولون في بعض المدن التي تتجه إليها أنهار أو ينابيع من مكان عال منحدر إلى مكان أسفل، وذلك بأنني رأيت الماء جاريًا في أسفل المراحيض وهو يذهب بالخبث بطبيعته لكون القرية واقعة في جبل مرتفع واقع في حضن جبال أكثر ارتفاعًا منه.

وهذه الحمامات لاتمكن مقارنتها بالحمامات والمراحيض العامة الحكومية التي رأيناها في عدة أماكن عامة في الإتحاد السوفييتي فحمامات هذا المسجد الكريم أنظف كثيراً، بل هي نظيفة في كل شيء منها، وإن لم تكن عصرية المظهر.

إكتظ مسجد تارغو بالحضور

ووجدت المسجد أكثر امتلاء بالناس مما عهدته قبل الوضؤ وذلك أن الناس الذين كانوا واقفين في الشارع ينتظرون أن تقع أعينهم على الوفد القادم من بلاد الحرمين الشريفين قد دخلوا إلى المسجد، واللافت للنظر أن فيهم نسبة كبيرة من الشبان ومن الرجال الأقوياء وكلهم من أهل السنة والجماعة، وهذه ظاهرة واضحة للنظر في داغستان أكثر من غيرها من مواطن المسلمين في الإتحاد السوفييتي حتى إن العاملين في الفندق وبعضهم من الشبان كانوا يأخذون المصحف ويحسنون القراءة فيه بعض الشيء مما يدل على أنهم قد تعلموا أمور دينهم أو شيئًا منها في دورهم، على أيدي أهليهم أو أقاربهم.

وهو أمر يظهر شدة تمسك الإخوة الداغستانيين بدينهم الإسلامي الحنيف وأن ما كنا قد سمعناه عن ذلك هو صحيح بل واضح الآن، لأن هذا التمسك قد بقى رغم الضغط الشديد الذي تعرضت له البلاد وسكانها المسلمون على أيدي المسيحيين المتعصبين في زمن الحكم القيصري في روسيا ثم على أيدي طغاة الإلحاد وعتاة المادية بعد انتصار الشيوعية وهيمنتها على شئون البلاد.

وقبل الصلاة تحدث الشيخ محمود كيكي إلى المسلمين عن وفد الرابطة وزيارته إلى بلادهم وأن قدوم أعضاء وفد الرابطة من الأراضي المقدسة يعتبر حدثًا تاريخيًا مشهودًا إذ لم تطأ ديارهم منذ أكثر من مائة عام أقدام شخص من مواطني مكة المكرمة والمدينة المنورة وأن هذا شرف لهم.

ثم نهضت والقيت كلمة شكرت فيها الادارات الدينية لمسلمي الإتحاد السوفييتي على الدعوة وترتيب الزيارة ثم قلت إن هذه الزيارة لبلاد المسلمين كان ينبغي أن تتم قبل بضعة أعوام ولكن ارتباطات الرابطة ومسئولياتها العالمية أخرت ذلك ثم قلت إن المسلمين في أرض الحرمين الشريفين ومعهم المسلمون في أنحاء العالم يبعثون مع وفد الرابطة سلامهم وتحياتهم اليكم وإن الرابطة تعمل علي التعاون وتوثيق الصلات مع المسلمين في كل أنحاء العالم انطلاقًا من مبدأ الإخوة الإسلامية التي أكدها القرآن الكريم ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

المؤلف يلقي كلمة في مسجد تارغو وعلى يساره المترجم

وإن الإخوة في الدين اقوى واوثق من أخوة النسب والعرق واثنيت على تمسكهم بدينهم وعقيدتهم وأن عليهم تربية أبنائهم على الإسلام والمحافظة على الصلاة حتى تستمر سيرتهم الإسلامية ليكون أبناؤهم خلف خير لسلف خير.

وكان يترجم كلامي من العربية إلى لغة القوم الشيخ محمد مختار إمام وخطيب المسجد الذي ارتجل بعد ذلك كلمة بالعربية القاها فصيحة واضحة حيا فيها الوفد وشكرهم على زيارتهم لبلدهم ومسجدهم وقال: إن المسلمين كلهم مبتهجون وفرحون لرؤية الوفد ويكنون له الإحترام والتقدير ذلك لأنه ضيف عليهم وان من الواجب تكريم الضيف ثم لأن الضيوف هم من العرب القادمين من البلاد العربية واخيراً لأن أعضاء الوفد هم من مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتين يتوجه إليهما ملايين المسلمين سنوياً لأداء فريضة الحج وبيت الله الشريف هو قب والصلاة في المسجد الحرام تعادل مائة ألف صلاة في غيره.

وقال: إن هذا اليوم هو عيد من أعياد داغستان لأن عيوننا تشاهد مواطني بلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وزيارتهم لبلادنا هي لله وفي الله.

السلام الكثيف :

عند الخروج من المسجد بعد الصلاة التفت الجموع على أعضاء الوفد يريدون المصافحة والسلام وبعضهم كان قد سلم وصافح من قبل ولكن ذلك لم يكفه فهو يريد مجرد آن تمس يده يد أحد منا فيسعد بذلك.

وقد رأيتهم بعد المصافحة يمسحون وجوههم واجسادهم بأكفهم طلباً لأن يمسها ما مسته ايديهم من أيدينا وكانوا يتزاحمون على المصافحة حتى يكادوا يقتتلون.

وأما النساء والفتيات فإنهن قد تجمعن على حواشي الطريق لايختلطن بالرجال ولايقتربن من أعضاء الوفد فرمينا لهن بالتحية والسلام من البعد تطييباً لقلوبهن وإكرا ما لهن.

والتقطنا صوراً لتجمع المسلمين عند هذا المسجد (تارغو) ولمنارته الرشيقة.

إحدى الصور التذكارية قبيل مغادرة تارغو

مغادرة تارغو :

بلدة (تارغو) هي آخر بلدة نزورها في داغستان غادرناها في الثانية إلا ربعًا في الظهر قاصدين مدينة (كروزني) عاصمة جمهورية (الشيشان انقوش) والشيشان والأنقوش قبيلتان أو جماعتان من الناس ولكننا لن نلبث في تلك المدينة بل لن ندخلها إلا مارين عابرين لأن اسمها لم يرد في جوازتنا عندما منحتنا السفارة الروسية في عمان تأشيرات السفر وحددت المدن التي تصلح لها التأشيرة وهي تسع في أنحاء من الإتحاد السوفييتي نقصت واحدة ألغيت زيارتها في آخر لحظة وهي مدينة قازان عاصمة جمهورية (تتارستان) .

وسيكون سفرنا إلى (كروزني) من داغستان بطريق البر للسبب نفسه الذي جعل سفرنا من (باكو) إلى (محج قلعة) بطريق البر وهو كون مطار (محج قلعة) تحت الترميم والإصلاح كما أخبرونا.

وتبعد (كروزني) عن محج قلعة زهاء مائتي كيلو متر.

وبلاد الشيشان مثل بلاد داغستان من مواطن المسلمين بل قال مرافقونا عن الشيشان إنهم مسلمون ٢٠٠٪ وأنهم أشد الناس تدينًا.

والشيشان: جنس وليس مكانا مثل (داغستان) التي تعني «بلاد الجبال».

وكنت عرفت طائفة من الشيشان في الأردن وكان منهم طلاب في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما كنت أعمل فيها وكان بعض الناس يعتبرونهم من الشركس وان لم يكونوا في الحقيقة جزءًا منهم وإنما هم من جيرانهم، وإخوانهم في الدين.

سار الموكب على طريق اسفلتية لابأس بها من حيث السعة والسفلتة بالنسبة إلى مقاييس الطرق في الإتحاد السوفيتي ولكنها تعتبر ناقصة إذا قيست بالطرق السريعة في بلادنا التي تمتد بين المناطق الرئيسية عندنا.

وكان مظهر البرية مظهر الربيع الذي كسا الأرض وكست أجزاء كبيرة منه وبخاصة في الأماكن المنخفضة من الأرض زهور برية صفر، بديعة المنظر.

وتمتد مع امتداد الطريق قناة ماء سحبت من سد (صولاق) الذي رأيناه أمس معاكسة للطريق لأنها ذاهبة إلى (محج قلعة) لتشرب منها المدينة وهي اسمنتية ذات مظهر معتنى به.

وقد وقفت إحدى سيارات الموكب بسبب سخونة في محركها فوقف بوقوفها الموكب كله وكانت هذه فرصة طيبة تمكنا فيها من استجلاء المنطقة من هذه البرية الداغستانية التي تقع في سهل منبسط فوقفنا بجانب القناة الممتدة وسط أعشاب الربيع وكان الجو في هذا اليوم ربيعياً جيداً وبخاصة أننا الآن في الظهر.

ثم تابع الموكب سيره فتجاوز جسراً ضيقاً أقليم على نهر (صولاق) غير المفعم بالمياه ورأيناهم يبنون بجانبه جسراً حديثاً واسعاً يريدونه بديلاً من هذا القديم ولايزال في طور البناء.

ولم يكن من شيء يكدر السير في هذا الطريق إلا الغبار الذي تثيره السيارات الكبيرة المقابلة أو التي نتجاوزها فتبعد عن الازفلت في الطريق إلى أكتافه الترابية فتثير غباراً غير أن زجاج السيارة كان مغلقاً محكم الإغلاق والجو داخل السيارة جيد فهي كبيرة وليس فها معي من الركاب إلا اثنان.

وقد شاهدنا أبراج الكهرباء التي يولدها السد وهي تنتشر ذاهبة في اتجاه البلدان والمصانع.

وقد رسخت الدولة في أذهان الناس أن المصانع هي أهم مالديهم من المؤسسات بكافة أنواعها فهي التي تكسب البلاد القوة، وتمنح المواطنين العمل، بل وتسد حاجة المواطنين في بلاد لاتستورد من السلع والأدوات الاستهلاكية إلا القليل النادر ولأغراض محددة.

لذلك نجدهم جميعاً يشيرون إلى المصانع باحترام واهتمام.

بلدة مسلمة :

مر الطريق ببلدة مسلمة مثل سائر القرى في داغستان بيوتها مبنية بعضها بالآجر وبعضها بالطين المطلي بطلاء أبيض كالجبس واسمها (خساو يورت).

وعندما سألتهم عن اسمها بادر الشيخ (محمود كيكي) بقوله: إن الشيخ (أبوالحسن محمد بشير) هو إمام هذه البلدة والشيخ أبوالحسن كان ملازماً لنا جزاه الله خيراً منذ وصولنا ولايزال معنا وقد كتب كلمة بالعربية من انشائه عن وضع المسلمين في داغستان تقدم ذكرها.

ولما كان الشيخ (أبوالحسن محمد بشير) يعرف العربية مثل بقية أئمة المساجد الذين رأيناهم سألتهم عن معرفة العربية التي اشتهرت بها داغستان؟ فأجابوا إنها كانت تعلم قديماً في حلق في المساجد أما الآن فإن الإمام أو المحب للعربية يتعلمها من الكتب ومن المذاكرة مع من يعرفون شيئاً منها من كبار السن وأما الشبان من الأئمة فإن بعضهم يكون قد درس في معهد الإمام البخاري في (طشقند).

ورأينا مقبرة للمسلمين في بلدة (خساويورت) هذه فلم نر علي القبور فيها قباباً ولا أي نوع من أنواع البناء وأخبرنا المفتي الشيخ محمود أن داغستان كلها لايوجد فيها بناء على قبر واحد وإنما العادة أن يكتب اسم الميت وتاريخ وفاته وآية قرآنية أو كلمة الشهادتين فوق الشاهد الذي يكون على قبره من جهة رأسه.

وحتى رفع القبور إلى درجة خارجة عن المعتاد ليس موجوداً هنا.

وقال إننا مع سائر السكان ننهى عن البناء على القبور لأننا نعرف بما توارثناه عن أسلافنا أنه مخالف للشرع.

وانطلق الطريق متجهاً شمالاً كعادته وهو الطريق الرئيسي المؤدي إلى موسكو وقد بقي منه على الوصول إلى موسكو أكثر قليلاً من ألفي كيلو متر وقطعنا منه من باكو عاصمة اذربيجان السوفييتة إلى الآن مايزيد بقليل على أربعمائة كيلو متر وقد افردت جمهورية أذربيجان هذه بكتاب عنوان (جمهورية أذربيجان المسلمة).

في جمهورية الشيشان :

أول الأشياء البارزة هنا نهر اسمه: (نهر قرزل) عميق المجرى غني بالمياه. ولم نر على حدود جمهورية الشيشان أي شيء يفصل بينها وبين جمهورية داغستان ولاعلامات على الحدود وذلك بأن هذه التسميات هي حدود داخلية كما تقدم.

وتسمى جمهورية (شيشان انقوش) أو بالروسية وهو الاسم الرسمي لها شيشن أنقوشانيا وهي متمتعة بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية مثلها في ذلك مثل جمهورية الداغستان التي هي أيضاً داخلة في جمهورية روسيا الاتحادية التي تبعد عاصمتها عنها أكثر من ألفي كيلو متر ولاتربطها بالروس سكان جمهورية روسيا الإتحادية أية رابطة من دين أو لغة أو ثقافة أو عنصر إلا رابطة الشيوعية التي يسمونها الاشتراكية.

وتبعد حدود جمهورية الشيشان تسعين كيلو متراً عن محج قلعة وقد بقي الآن حوالي المائة كيلو متر على الوصول إلى مدينة (كروزني) عاصمة الشيشان.

واستمر السير مع طريق ريفي معمور أكثره بأشجار العنب المقام على أعواد مرتفعة وليس بالعنب المعروف عندنا الذي يجعل على عرائش واسعة.

ومررنا بقرية ريفية كان ما أهم مالفت نظري فيها دخان منبعث من قمائم يحرقونها بقربها وبقرات حمر الألوان قليلة العدد عللوا ذلك بكونها مملوكة لأشخاص وليست للدولة التي تربي الأبقار في حظائر حديثة ووسط أراض زراعية. أما أهل هذه الأبقار فقد أرسلوها ترعى من الأعشاب أو في أطراف المزارع.

وعلى الطريق أشجار متفرقة بعضها من الأشجار البرية المهذبة، جعلت كذلك تجميلاً للطريق وبعضها من أشجار الفاكهة وأهم مافي أشجار الفاكهة هذه أشجار المشمش فالمنطقة من مناطق الفاكهة التي تزدهر في الأماكن الباردة.

بلدة أدورمس :

مر الطريق ببلدة أدورمس ، أهلها مسلمون من الشيشان أول مالفت نظري فيها منارة شامخة لمسجدها بل هي عالية حتى تكاد تكون أعلى بناء موجود في البلدة فهي أكثر ارتفاعًا من أبنية حكومية متعددة الطوابق رأيناها عند دخول المدينة أو هكذا تبدو للنظر لأنها غير ملاصقة لها .

ذكر لنا الأخوة المرافقون أن هذا المسجد قديم ، ولكن جدد بناؤه قبل ثلاث سنوات .

وفيما عدا المسجد والأبنية الحكومية المتعددة الطوابق التي تؤجرها على الناس فإن سائر البيوت في البلدة تتألف من طابق واحد وهي ذات سقوف مسنمة من أجل كثرة الثلوج في شتائها .

ولم نقف في بلدة المسلمين هذه لأنها ليست في البرنامج ، وبرنامجهم صارم لايجوز تخطيه ربما كان السبب في ذلك أن الذين يرسمونه أعلى مقامًا من الذين ينفذونه والذين ينفذونه لايستطيعون الخروج عنه الا بإذن من أولئك ولايتسع الوقت لذلك أو أنهم يعرفون أنهم لايوافقون علي الخروج عنه .

وقد مررنا بنهر صغير يقع جهة الشمال من البلدة فوقه جسر غير جيد ، ومازالت الشاحنات ونحوها من السيارات الكبيرة أكثر في الطريق من سيارات الركوب الصغيرة المعتادة ، بل إن كثرة الشاحنات هنا ملفتة للنظر ، وكلها كسائر الأشياء هنا صناعة وطنية .

ومررنا بحقل للبرسيم فسألت عن الثلج أيضره إذا نزل عليه لأنه مثل البرسيم الموجود عندنا يظل أكثر من سنتين وهو يحصد ويخلف أوراقًا جديدة؟ فذكروا أن الثلج لايضر جذوره وإنما يضر بأوراقه لذلك يتركونه في وقت الشتاء إذا نزل عليه الثلج .

وبعده مر الطريق بحقول من حقول القمح فأخبرونا أيضاً أنه قمح شتوي يبذر قبل نزول الثلج فينزل عليه ولايضر جذوره، ويكون ذلك أقوى لنباته، عندما تذوب الثلوج عنه.

وقبل الوصول إلى مدينة (كروزني) عاصمة جمهورية الشيشان أنقوش بخمسة وعشرين كيلو متراً مررنا ببلدة اخترق الطريق شارعها العام وهي ذات بيوت من طابق واحد مبنية بالآجر الأحمر.

ومن الأشياء الملفتة للنظر فيها دجاج سارب في الطريق مما يدل على قلة الزوار من الأجانب الذين يأتون إليها وإلا منعت الحكومة أهل الدجاج من ترك دجاجهم في الشوارع لأن ذلك يدل على التخلف ليس من جهة الإدارة فحسب وإنما من جهة كون الدجاج أصبح في أكثر البلدان المتقدمة يربى في مزارع خاصة ووفق طرق علمية بمقادير عظيمة كما هو عليه الحال في بلادنا في الوقت الحاضر.

ومظهر النساء اللاتي أبصرناهن من السيارات مظهر المسلمات من حيث اللباس وبخاصة وضع المناديل على رؤسهن.

وقد أخذت السيارتان العسكريتان اللتان تواكبان الموكب تتبادلان الموقع فتأخرت التي كانت أمام الموكب وتقدمت التي كانت خلفه.

هذه هي كروزني :

أو (المدهشة) فاسمها كروزني يعني المدهش أو المدهشة أو الرهيب كما في اسم القيصر إيفان الرهيب ويسمونه ايفان كروزني بمعنى الرهيب وترجم بعضهم اسمه (إيفان المدهش).

وعلى هذا يكون اسمها روسيا استعمارياً مع كون أهلها مسلمين متمسكين بدينهم.

وصلناها في الساعة الرابعة من بعد الظهر وقبل الوصول إليها صار الطريق مزدوجًا أي طريقًا للذهاب وطريقًا آخر للاياب وتفصل بينهما جزيرة غير عريضة ولكنها مزروعة بزراعة غير نضرة ثم عاد واحدًا في وسطها.

وأول ما استرعى انتباهي قبل الوصول إليها هو كثرة أشجار الفاكهة من التفاح الذي قد أزهرت أشجاره وهي تزهر بعد فصل الربيع فور ظهور أوراقها بعد أن تكون قد سقطت في الشتاء.

وأشجار الكرز ذات الأزهار الجميلة التي تدل على البراءة وكأنها تبتسم لقدوم الربيع أو لقدوم ضيوف أعزة على أهل البلاد.

وفي وسط البلدة صار الموكب يتمهل لكثرة السيارات وبخاصة عند إحدى الاشارات في منطقة مزدحمة بالناس فكان الملفت للنظر في ألوانهم أنهم بيض كبياض الأوروبيين وإن تكن تقاسيم وجوههم ليست كوجوه الأوروبيين وإنما تشبه الوجوه العربية لولا شدة البياض والعرب من ناحية الشكل لايبعدون عن الأوروبيين كثيراً على وجه العموم، وإنما يفرق بينهم اللون والشقرة في الشعر.

ولايبدو على أشكالهم أي أثر للشكل الروسي الغليظ الجسم، المنتفخ الوجه في العادة وحسب ما رأيناه منهم.

والوصف الصحيح لهؤلاء الإخوة المسلمين من ناحية الأشكال والألوان هو الجمال والإنسجام في التقاسيم أما بيوت المدينة فأغلبها من الآجر الأحمر، وربما كان هو الطراز الغالب على بناء البيوت في القديم.

وفي قلب المدينة كثرت السيارات التي اختلطت الشاحنات فيها بأصوات محركاتها الثقيلة المزعجة وما تثيره من غبار إذا خرجت عن الإزفلت إلى حواشي الطريق التي لاتخلو من الغبار الخفيف بسيارات الركوب التي أكثرها الطراز الصغير الذي هو في الأصل سيارات (فيات) الإيطالية صنعت في الإتحاد السوفييتي بموجب ترخيص خاص في أول الأمر.

كما كثر منظر الأبنية الحكومية (العمايـر) المتعددة الطوابق والعالية منها تتألف من ستة طوابق.

ميدان الزيزفون :

مررنا بميدان في وسط المدينة اسميناه (ميدان الزيزفون) لأننا لاندري اسمه وإنما رأينا فيه أشجار الزيزفون بكثرة وذكروا أن النحل تتغذى على ازهارها عندما تزدهر في شهر يونيو وخشبها تصنع منه التحف، لأنه لين طيع في يد النجار أو الخراط.

ولفتوا نظرنا إلى نفق أقبلنا عليه في الشارع الرئيسي من المدينة وهو نفق مفتوح ولكن بعضهم تذكر الأنفاق الطويلة الكثيرة في مكة المكرمة فقال: إنها مثار الإعجاب بل الفخر لبلادكم وقالوا إنهم يعتقدون أنه لاتوجد بلدة في العالم فيها مثل هذه الانفاق كثرة واتقاناً في التنفيذ فقلت لهم: إن هذا هو ما أعتقده على ضوء زياراتي لأنحاء العالم.

ويسمون هذا الشارع الرئيسي (شارع لينين) لأنه أهم شارع في المدينة ولينين أهم حاكم شيوعي عندهم وقد عجبت من إتساع المدينة فذكروا لنا أنها أكبر من محج قلعة.

ولازلت أعجب من القلنسوة أي الطاقية الغليظة الكبيرة بل الضخمة التي تعلو رؤس الإخوة من الداغستانيين وقد رأيتها هنا فأخبرونا أنها تكاد تكون واحدة حتى في جمهورية جورجيا وذلك بجامع البرودة الشديدة في البلاد في فصل الشتاء.

ولاحظنا في هذه المدينة شاهداً آخر علي اتساعها في عربات القضبان الكهربائية وهو المسماة بالترمواي فلا تزال تعمل فيها.

ومن الملاحظ شدة انصياع القوم لأوامر المسئولين أو رجال الإدارة فقد لاحظنا أن السيارة العسكرية التي تتقدم موكبنا كانت تأمر أرباب السيارات المعاكسة في السير أو حتى التي تلحق بنا بأن تبتعد عن الموكب فتنصاع لهذا الأمر بسرعة بحيث ينحرف السائق بسيارته انحرافًا مباشرًا شديدًا ليثبت أنه لم يتأخر ولالحظة واحدة في تنفيذها.

وقد كنا دخلنا المدينة من الجنوب واتجهنا شمالاً حتى وصلنا ناحية في شماليها من دون أن نقف أو نستطلع بقية المدينة ثم غادرناها إلى المطار على طريق جيد واحد يفصل بين المسارات الذاهبة والآيبة منه خطان اصفران.

وقد ذكروا أن في المدينة مسجدين اثنين مثل (محج قلعة) ولكننا لم نستطع زيارة أي منهما لأن هذا هو الذي أراده مضيفونا و(الضيف في حكم المضيف).

وكذلك في القرى والبلدان الصغيرة القريبة منها مساجد يكون في البلدة أو القرية الكبيرة مسجد واحد.

في مطار كروزني :

وقف الموكب عند مدخل مطار كروزني حيث يقف الذين يريدون السفر منه، ووجدنا في الاستقبال طائفة من الإخوة أهل الدين وأئمة المساجد هناك على رأسهم الأخ الشيخ (شاهين بن يونس) إمام جامع فريقرد في كروزني وخطيبه ويصفونه بأنه قاضٍ وعضو في الإداراة الدينية لشمال القفقاس.

ومعنى القاضي عندهم هو أنه يفتي المسلمين ويفض النزاعات بينهم التي تصل إليه بما يعرفه من حكم الشرع الشريف وإلا فإنه لايوجد قضاء إسلامي ولا إفتاء رسمي للمسلمين ولاحتى منصب معترف به من هذا القبيل ما عدا إمام المسجد وعضوية الإدارة.

ومع الشيخ شاهين طائفة من الإخوة الكرام وأئمة المساجد في المدينة وما قرب منها وقد حضروا ليكونوا في استقبال وفدنا جزاهم الله خيرًا.

صورة تذكارية مع المسلمين الشيشانيين في مطار كروزني

دخلنا إلى مطار (كروزني) فوجدناه مطاراً حديثًا بهيج الأبنية والمظهر، وليس كبعض المطارات والأبنية في الإتحاد السوفييتي التي تتسم بكآبة المنظر وعدم مراعاة الجمال في بنائها.

فنوافذ الأبنية من الألمنيوم الأصفر اليهيج، وفي غرفه ومكاتبه اسقف مستعارة كالذي يكون في الأبنية الحديثة في البلدان ذات الإقتصاد الحر، ويوجد رخام لامع جيد في الحيطان.

وحتى العاملات في المطار لسن من الروسيات الثقيلات الأجسام والأرواح اللاتي لاتعرف الابتسامة طريقها إلى شفاههن لكونهن كبيرات في السن، وربما لايجدن في حياتهن مايحملهن على الابتسام.

وكانت جلسة في قاعة الزوار في المطار حضرها بعض المستقبلين الرسميين من المسئولين في المطار وفي الإدارة الحكومية ولكنهم انصرفوا بعد قليل.

وقضينا الوقت مع الاخوة الكرام من أهل هذه البلاد الشيشانية وإذا أردنا التقيد بالاسم الرسمي قلنا : الجمهورية الشيشانية فكان من الحديث عن لغتهم الشيشانية أنها ليست لها علاقة بلغة أهل محج قلعة القريية منهم وإنما لهم لغة قائمة بذاتها وأما الجمهورية فان فيها ثلاث لغات أخرى.

ولغتهم من المجموعة القوقازية التي توجد لها علاقة بلغة أهل جورجيا المجاورة، وفيها ألفاظ عربية، أغلبها من الألفاظ الدينية أو مما ورد في القرآن الكريم والمصطلحات الفقهية.

وقدموا لنا غداء خفيفًا هو الشطائر ذات اللحم والجبن مع المياه الغازية والأشربة الباردة ثم القهوة والشاي وذلك بأنهم يعرفون من طائراتهم عدم تقديم الطعام للركاب.

مغادرة كروزني :

في الساعة السادسة مساءً كنا نودع الإخوة الكرام أهل كروزني عاصمة الشيشان ونخرج إلى الطائرة وقد صنعوا معنا مثلما صنعوا في السفر من سمرقند إلى باكو ذلك هو رؤية الجوازات والتأكد من أن اسم المدينة التي ستسافر إليها مذكور في جوازات السفر.

ولم يقتصر هذا الأمر علينا وحدنا، بل إن المواطنين أنفسهم لابد للمسافر منهم أن يبرز بطاقته الشخصية عند السفر ولايسمح لمن لايفعل ذلك بالخروج إلى الطائرة.

قامت الطائرة في السادسة والنصف قاصدة (اوفا) عاصمة بلاد البشقردز الذين يسمون البشكير، وقد عرفهم أسلافنا العرب بهذا الاسم (بشقرد) وبعد (أوفا) تذهب إلى سيبريا التي لاتبعد حدودها عن (أوفا) إلا بحوالي مائتي كيلو متر وأعلنت المضيفة ان (اوفا) التي تقصدها تبعد بمسافة ألف وثمانمائة وعشين كيلو متراً عن كروزني تقطعها الطائرة في ساعتين وثلث.

والطائرة من طراز توبوليف ١٣٤وهي تشبه في الحجم طائرة بوينج ٧٢٧ إلا أنها مقسمة من الداخل إلى قسمين أو ثلاثة بينها باب أو حاجز يظل مفتوحاً أكثر الوقت.

أعلنت المضيفة مسافة الرحلة والوقت الذي تقطعه وشيئًا آخر هو أنه ممنوع شرب الدخان أو تناول الخمر خلال الرحلة كلها.

لقد قالت ذلك من باب تحصيل الحاصل، أو إيضاح الواضح لأن هذا أمر قد أصبح معروفًا في جميع الرحلات الداخلية في الإتحاد السوفييتي حتى المسافات الطويلة منها ولأن الركاب يعرفون عدم السماح لما قد يحملونه من ذلك في حقائبهم فتكون عرضة للضياع والترك في مطار المغادرة لأن الخمر يمنع ادخالها للطائرات ولو لم يشر بها الراكب.

الخمر والحية :

حدثنا إخواننا وأعادوا الحديث عن الصرامة في منع شرب الخمور على الطائرات وفي الرحلات العامة وكذلك الحد من بيعها فبعد أن كانت شيئًا معتادًا للبائع والمشتري، والبائع هنا على الدوام هو الحكومة – منعت الحكومة بيعها إلا مدة خمس ساعات من الثانية ظهراً حتى السابعة مساءً من كل يوم ماعدا يومي السبت والأحد فلاتباع فيهما أصلاً وذلك ان الناس كانوا قد اعتادوا على شرائها لشربها في يوم العطلة الذي هو يوم الأحد.

ولقد حرمت الحكومة بيعها فيما عدا ذلك وشربها في الأماكن العامة مع علمها بأنها تخسر من ذلك كثيراً ولكنها عرفت وجربت أن الخسارة التي تلحق بالحكومة من جراء اقبال الناس على شرب الخمر وتفريطهم نتيجة لذلك بساعات ثمينة من ساعات العمل وماينشأ من الافراط في تناول الخمر من امراض تحتاج من الدولة إلى علاج جعلها تعرف بعمليات حسابية أن تحريم الخمر والحد من شربها هو أجدى نفعًا، وأحسن عاقبة وأكثر فائدة للعباد والبلاد.

وقد أخبرونا أنه حتى في الحالات التي يباح بيعها فيها خلال الأوقات المعلنة فإن الحصول عليها يتسم بالصعوبة والتعب لكثرة المشترين.

وقد حدثنا الإخوة المسلمون عن النكتة التي أخذ الناس يطلقونها على محلات بيع الخمور الآن بقولهم: ما هو الشيء الذي له منظر الحية، وله ذيل طويل ومئات الأرجل؟ إنه طابور شراء الخمر أمام المحلات التي تبيعها.

وعرفنا بعد ذلك أن الشعب السوفييتي كثيراً ما يتناول الأمور التي يصعب اعتراضه عليها، ولايستطيع ذلك بالنكت أو الألغاز ينفس الناس بها عن أنفسهم.

هذا وكانت الطائرة مليئة بالركاب وليس كما عليه الحال في الصين الشيوعية حيث ركاب الطائرات قلة قليلة من الناس بسبب ارتفاع أسعار التذاكر وتدني مداخيل الناس هناك.

أما هنا فإن السعر رخيص إذّ ذكروا أن التذكرة على مثل هذه الرحلة التي نحن عليها الآن مابين كروزني وأوفا سعرها خمسة وثلاثون روبلا مع أنها تمتد ١٨٢٠كيلو متراً وأن متوسط أجر العامل في الشهر هو مائتا روبل.

هذا والطائرة الآن متجهة جهة الشمال الشرقي وهو الإتجاه الصحيح لمدينة (أوفا) ويوحي هذا الأتجاه بالبرد لأن (محج قلعة) و(باكو) كانتا باردتين بالنسبة إلينا وإلى هذا الفصل من السنة مع أنهما تبعدان كثيراً جهة الجنوب إلا أن الشيخ (طلعت تاج الدين) وهو أخونا ومرافقنا طول الرحلة ومن أهل (أوفا) قال: إنها أبرد منهما كثيراً غير أن الجو في فصل الربيع هذا قد يتغير، وإلا فإنه عندما غادر أوفا ليستقبلنا في موسكو كان الجو فيها مماثلاً للجو في موسكو وكانت درجة الحرارة عندما وصلنا موسكو هي درجة الصفر المئوي.

ثم طلب من المضيفة أن تسأل الطيار عن درجة الحرارة في (أوفا) فقالت: إنها بعد ظهر هذا اليوم كانت اثنتين وعشرين درجة مئوية وحمدنا الله تعالى وعجب الشيخ وهو من أهلها أن تكون بهذه الدرجة من الدفء وقال: هذا عظيم.

لقد ارتفعت الطائرة في الجو ولكن كان الجو صحواً لذلك تبينت منظر الأرض تحتنا فكان منظر الأرض المعمورة بالزراعة ومنظر الوديان غير المكتظة بالماء، ولكن هناك بحيرات كثيرة غير واسعة.

أما الضيافة فإنها لم تزد على قطرة من شراب يخيرونك في أن يكون من الكاكولا أو من عصير العنب ويساوي مقداره ثلث الزجاجة المعتادة من البيبسي كولا التي تقدم للشخص الواحد مع أن الرحلة طويلة والوقت وقت عشاء ومع ذلك فإن هذه الضيافة القليلة كانت المضيفة تقدمها للركاب وهي مقطبة، ولم أرها ابتسمت ولامرة واحدة لأي راكب من الركاب.

ولكن هذه عادة عرفناها في الطائرات الروسية في الرحلات الداخليةوقد ذكرت ذلك عند الكلام على السفر من سمرقند إلى باكو في كتاب (جمهورية أذربيجان).

وحتى الصحف لاتوجد في الطائرة إلا صحف لهم قديمة ومنها صحيفة (برافدا) الشهيرة وقد صدرت قبل يومين أي يوم ٢٢أبريل ومع ذلك هي ذات صفحات قليلة ومادة إذا رآها من لايفهمها حكم بأنها ضئيلة فهي في ست صفحات من ورق ردئ وبحبر غير ناصع، وماشبهتها إلا ببعض جرائد البلدان الإفريقية الفقيرة.

وعندما رأيتها لم أصدق أن هذه هي صحيفة البرافدا المشهورة التي تتناقل وكالات الأنباء العالمية تعليقاتها وتفسيراتها للأحداث باهتمام.

والسبب في ذلك الإهتمام أن هذه الصحيفة ذات المظهر الزري تنطق بلسان دولة قوية ذات جيش قوي وشعب كبير له التأثير العظيم على مجرى الأحداث في العالم.

وليس في الطائرة درجة أولى، بل كلها سياحية وفي حمام الطائرة رأيت الفوطة الكبيرة الوحيدة التي وضعت ليمسح بها من يدخل الحمام يديه أو وجهه إن غسله بديلة من المناديل الورقية في الطائرات الأخرى فهي لاتوجد في هذه الرحلات الداخلية السوفييتية التي ركبنا معها ولو طالت تلك الرحلات.

وفيها ورق مرحاض خشن جداً ولايتشرب الرطوبة.

وليس في المرحاض ارشادات كالتي تكون في حمامات الطائرات العالمية مثل التي تدل على مكان رمي النفايات أو تبين كيفية استعمال المرحاض، فهم هنا كما في حياتهم العامة لاينشدون الترف في حياتهم، وإنما يقتصرون على ماتدعو إليه الضرورة.

ولذلك صارت جيوب المقاعد أمام الراكب في الطائرة خالية تماماً من أية أوراق فضلاً عن المعلومات المعتادة عن نوع الطائرة وإرشادات السلامة عند النزول الاضطراري، وفي العادة تكون فيها مجلة أو منشورات عن الشركة الناقلة وخريطة عن رحلاتها.

وعندما ذكرت لأخينا الشيخ طلعت تاج الدين تلك الأنهار أو الجداول التي في الوديان التي رأيتها من الطائرة، قال: إن الأنهار في الشتاء تصبح طرقًا للسيارات إذا كانت مستقيمة مباشرة لأنها تتجمد وتكون مستوية السطح.

الشفق الطويل:

غابت الشمس في الطائرة لأننا كنا نطير جهة الشمال الشرقي والشرق تغيب فيه الشمس قبل الغرب بطبيعة الحال وأما الشمال في الصيف فإن الشمس تغيب فيه بعد الجنوب وبخاصة في أول الصيف، وقد صار الشفق يما شينا وهو أحمر يميل إلي البياض ولم يسرع إليه الإظلام كما يسرع إلى الشفق في بلادنا كما ذكرت.

بلاد الشفق والغسق :

وبهذه المناسبة قال الشيخ طلعت تاج الدين إن بلادنا التي عاصمتها (أوفا) هي بلاد (الشفق والغسق) ذلك بأن الشفق لايغيب من جهة الغرب في الصيف قبل أن يطلع الغسق الذي هو أول الفجر جهة الشرق، وهي من بلاد البلغار التي ذكرها الفقهاء بهذا الأمر، وذكر أن النهار يطول عندهم جداً في الصيف وأنهم في شهر رمضان في الصيف الماضي كانوا يفطرون في الساعة الحادية عشرة والنصف وهو موعد مغيب الشمس وذلك في شهر يونيو، وقال: إن صلاة التراويح تستمر عندنا من الثانية عشرة والنصف حتي الواحدة بعد منتصف الليل، وموعد السحور في الساعة الثانية، وتطلع الشمس في الساعة الرابعة والنصف.

ومن الغريب الملفت للنظر من الطائرة أن الظلام كان دامساً على الأرض بحيث صرنا لانبصر ما هو تحتنا مع أن الشفق أبيض معترض في السماء في أفق الغرب.

في مطار أوفا :

قبل النزول أعلنت المضيفة باللغة الروسية التي ليس معها لغة أخرى من بين ما أعلنته أن درجة الحرارة في (أوفا) هي أربع عشرة درجة مئوية وهذا معناه جو ربيعي لأننا الآن بعد مغيب الشمس بفترة وقد رأينا من الطائرة أتوار المدينة ساطعة جيدة.

وكان الوصول إلى مطار أوفا في الساعة التاسعة بوقت داغستان وشيشان الذين تركناهما، وهو موافق لتوقيت موسكو ويصادف الساعة الحادية عشرة بتوقيت أوفا الذي يتقدم عن توقيت موسكو الصيفي بساعتين، وعن توقيت المملكة ساعة واحدة.

وعندما حطت الطائرة في المطار لم يتحرك أحد من ركابها، وقال الشيخ طلعت إنهم لاينزلون بل لايغادرون مقاعدهم حتى ننزل نحن، لأن هذه هي العادة مع الضيوف والزوار من خارج البلاد ولم يقل ما إذا كانت المضيفة قد أعلنت ذلك للركاب من مكبر الطائرة.

ولم ينزل أحد قبلنا إلا بعض رجال الوفد الإعلامي المرافق وفيهم مصورون للتلفزة المحلية والإتحادية، جريا على عادتهم في تكريم ضيوف البلاد في مثل هذه المواطن.

نهاية الحديث :

وبهذا انتهى الحديث عن بلاد الداغستان والرحلة إليها ومن هنا أيضاً يبتديء الحديث عن جزء آخر من بلاد الاتحاد السوفييتي الواسعة ولكن في كتاب آخر من هذه الكتب في الرحلات.

وقد رأينا أن نلحق بهذا بياناً بالتوصيات التي رآها وفدنا مناسبة للعمل الإسلامي في الاتحاد السوفييتي بعامة الحقت بهذا الكتاب وهي صالحة لكي توضع في الكتاب الآتي بعده وعنوانه (ذكريات في الاتحاد السوفييتي) كما أنها صالحة لأن تطبق على المسلمين في الاتحاد السوفييتي الذين انتهينا من زيارتهم قبل (داغستان) وتحدثنا عن ذلك في كتابين هما (في بلاد المسلمين المنسيين : بخارى وماوراء النهر) و(جمهورية اذربيجان السوفيتية) وكلاهما مطبوع .

التوصيات الخاصة بالعمل الإسلامي في الإتحاد السوفيتي

١ – أن يكون هناك حضور اسلامي شبه مستمر أمام المسلمين في الإتحاد السوفيتي، وذلك بوضع خطة مدروسة تقضي بأن يكون هناك زائر أو زائرون من الشخصيات الإسلامية والدعاة بصفة دورية من أنحاء العالم الإسلامي لرفع الروح المعنوية للمسلمين وتوثيق الصلة بهم.

٢ – تزويد الجماعات المسلمة في الاتحاد السوفيتي بما تحتاجه من وسائل التوعية والتثقيف بالإسلام وما يعينهم على تفهم دينهم وتوعيتهم بمبادئ القرآن الكريم والسنة المطهرة بما يتناسب مع أوضاعهم الحالية واحتياجاتهم الثقافية وذلك بواسطة الطلاب المسلمين والسفارات العربية والإسلامية المتعاونة والسائحين المسلمين.

٣ – زيادة الاتصال والتعاون مع الادارات الدينية الإسلامية الرسمية هناك بما يقوي علاقاتها برابطة العالم الإسلامي ويعود بالنفع على المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ويتيح الفرصة لانفاذ بعض المشروعات الإسلامية هناك والاتصال بالمسلمين ويعزز مكانتهم.

٤ – حث الهيئات الإسلامية العالمية على ضرورة دراسة أحوال المسلمين في الدول الشيوعية دراسة وافية بحيث تتناول تاريخها وثقافتها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية على أسس علمية وتوفر معلومات دقيقة وموضوعية تساعد على مايلي:

(أ) تنبيه الجماعات والمجتمعات الإسلامية في العالم إلى مخاطر الشيوعية ومكايدها وتزويدها بالمعلومات اللازمة في تشكيل علاقاتها المختلفة مع

الدول الشيوعية والتعرف على خلفية صداقتها المزعومة مع الشعوب الإسلامية.

(ب) تعريف الرأي العام العالمي على ما تمارسه الشيوعية ضد الإسلام والمسلمين من مظالم وضغوط بصورة يؤثر النقد الصادر منها على الحكومة صاحبة العلاقة ويؤدي إلى تخفيف الاضطهاد.

٥ - أن تكتب رابطة العالم الإسلامي إلى منظمة المؤتمر الإسلامي بأن تحث سفراء الدول الإسلامية الذين يوجدون في الدول الشيوعية بالمواظبة على أداء الصلوات وبخاصة الجمعة في المساجد ومشاركة المسلمين في الاحتفالات بالعيدين وانتهاز تلك المناسبات في إهداء المصاحف والكتب الإسلامية للمسلمين، لأن ذلك يبعث الاطمئنان والثقة في نفوس المسلمين ويمنحهم الدعم المعنوي أمام السلطات الشيوعية التي حرمتهم من الاتصال الحر مع مسلمي العالم الخارجي ويشجع أولئك المسلمين على ممارسة شعائرهم ويقوى صلتهم بالإسلام والمسلمين.

٦ - أن تكتب الرابطة إلى مجلس تعاون دول الخليج العربي ومنظمة المؤتمر الإسلامي بأن تستفيد الدول الإسلامية من الاتفاقيات الثقافية التي تبرمها مع الدول الشيوعية في إبراز الطبيعة الإسلامية والممارسات الدينية في حياة الشعوب المسلمة في الكتب والأفلام واللقاءات الثقافية والفنية التي تجريها في الدول الشيوعية مادامت تلك الحكومات تستفيد من تلك الاتفاقيات في إبراز حياتهم الثقافية وأفكارهم الملحدة في بلدان العالم الإسلامي.

٧ - يتعرض مسلمو الدول الشيوعية إلى بث إذاعي مكثف من الاذاعات المسيحية والشيوعية بجميع اللهجات التي يستعملها المسلمون هناك، والبث الإذاعي الإسلامي أمر ضروري لتعريفهم بحقائق دينهم الذي يتعرض للمسخ والتشويه.

وحيث يشكل البرنامج التركستاني من الإذاعة السعودية بجدة المصدر الوحيد للمعرفة الدينية والثقافية الإسلامية التي يتلقاها المسلمون التركستانيون فإنه ينبغي ما يلي :

(أ) وضع خطة تدريب وإعداد لبعض الكفاءات السعودية لادارة هذا القسم وإعداد مواده بالمستوى الملائم لثقافة المسلمين في الاتحاد السوفييتي وما يتعرضون له من تيارات فكرية الحادية ومادية هناك وأن يكون البث باللغة الجغائية التركية عموماً وباللهجات الرئيسية مثل القازاقية والقيرغيزية حتي تكون الفائدة عامة.

(ب) ان تكتب الرابطة لمنظمة المؤتمر الإسلامي أن تحث دول الأعضاء على بث برامج إسلامية باللغة الروسية واللغات التي يتكلمها مسلمو الدول الشيوعية المختلفة ووضع خطة مشتركة للبث الإسلامي من الدول الإسلامية.

(جـ) يمكن تقوية البث الإذاعي الإسلامي من المملكة العربية السعودية بإنشاء أو استئجار محطات إذاعة في الدول القريبة من مناطق التجمعات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي.

٨ – إنشاء أقسام في الجامعات ومراكز البحوث مجهزة بالباحثين الذين يجيدون اللغة الروسية واللغات القومية لمسلمي الدول الشيوعية لمتابعة كل مايكتب ويقال ضد الإسلام هناك والرد عليه بتلك اللغات بالكلمة المكتوبة والمسموعة وإعداد المواد الإسلامية الدينية الإيضاحية بهدف التوعية والتعريف بتعاليم الإسلام وأحكامه، وكذلك متابعة أحوال المسلمين هناك وإعداد الدراسات اللازمة عن الإسلام والمسلمين في تلك الدول.

٩ – إشراك زعماء مسلمي الاتحاد السوفيتي في عضوية المجالس والمؤتمرات كالمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ومجمع البحوث الإسلامية لاتاحة الفرصة لزعماء المسلمين هناك في عرض أحوال المسلمين المضطهدين ومعاناتهم من الحكم الشيوعي أو الالحادي.

١٠- تشجيع الجماعات الإسلامية والتركستانية في تركيا وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لاقامة ندوات واجتماعات خاصة، تشترك فيها نخبة من المفكرين والعلماء المسلمين وكتابهم لمناقشة ودراسة أحوال المسلمين في العالم الشيوعي. وأن تبدأ الندوة الأولى بمبادرة من مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ومركز نشر تركستان الشرقية في استانبول ومشاركة الجامعات الإسلامية. وأن يقدم الدعم المادي والمعنوي لانفاذ ذلك.

١١- دعم نشاط المهاجرين المسلمين من الدول الشيوعية في شرح وتعريف أحوال بلدانهم وشعوبهم الإسلامية وذلك بالمساعدة المالية لمجلاتهم وصحفهم الصادرة.

١٢- وضع ترجمة صحيحة لمعاني القرآن لكريم باللغة الروسية بتكوين لجنة من الشخصيات العلمية من المسلمين المهاجرين أو الدارسين في الاتحاد السوفييتي بعد التثبت من صحة عقيدتهم واتجاهاتهم حتى تظهر الترجمة خالية من التأثيرات الشيوعية والأفكار المادية والبدع التي بثها المستشرقون الروس في ترجماتهم الروسية لمعاني القرآن الكريم ولكي تسد حاجة الشباب المثقف ثقافة عصرية.

١٤- وضع ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة التركستانية حتى يتعرف عامة المسلمين في الاتحاد السوفيتي إلى أحكام الإسلام وتعاليم الدين الحنيف باللغة والابجدية التي يعرفونها وخاصة أنهم أكثرية ولاتتوفر لهم ترجمة بتلك اللغة والابجدية حتى اليوم، وأن يتم ذلك بتشكيل لجنة من المختصين التركستانيين الموثوق بهم دينيًا تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي.

١٥- توجيه نداء عبر وزراء الأوقاف والشئون الإسلامية والهيئات الإسلامية بأن توصى الوفود والشخصيات الإسلامية التي تنوي زيارة الإتحاد السوفييتي وبقية الدول الشيوعية إلى حمل المصاحف الشريفة والكتب الإسلامية هدايا للمسلمين هناك.

١٦- تخصيص منح دراسية لابناء المسلمين في وسط آسيا وشرق أوروبا في الجامعات والمعاهد الإسلامية في البلدان الإسلامية.

١٧- إقامة دوات تدريب للأئمة والخطباء هناك وان يتم ذلك بالتعاون مع الادارات الدينية لمسلمي تلك المنطقة.

١٨- المساعدة على تسهيل أداء فريضة الحج لأكبر عدد من المسلمين هناك وذلك بأتخاذ التدابير اللازمة مع الجهات المختصة في تسهيل وصولهم واستضافتهم وملاحظتهم.

١٩- دعوة الاجهزة الإعلامية الإسلامية وكذلك الجامعات ومراكز البحوث الإسلامية للاهتمام بقضايا المسلمين في تلك الأقطار بالتحقيق والدراسة والتعريف وتقديم المعلومات الصحيحة، حتى لاتكون أجهزة الإعلام الغربية والصهيونية المعادية للإسلام هي المصدر الوحيد للمعلومات عن المسلمين في تلك المناطق.

٢٠- فتح مكتب لرابطة العالم الإسلامي في موسكو ومكتب آخر في طشقند تكون له فروع في الجمهوريات المسلمة المجاورة لملاحظة النشاط الإسلامي وتوثيق الصلة والعلاقة مع المسلمين والادارات الدينية الإسلامية هناك.

٢١- الكتابة إلى منظمة المؤتمر الإسلامي بأن تحث وزراء التعليم والتربية بالإهتمام بالطلاب الذين يدرسون في الدول الأوروبية الشرقية وذلك بنصح أولئك بالتمسك بدينهم وأداء الصلاة وبخاصة صلاة الجمعة جماعة في المسجد والابتعاد عن السلوك اللا أخلاقي الذي يسيئ إلى سمعة بلادهم ودينهم وصحتهم ومستقبلهم.

٢٢- دعوة عدد من كبار المسلمين وذوي النفوذ المعروفين في البلاد في غير موسم الحج لأداء مناسك العمرة مع تنظيم برنامج لهم يتضمن زيارة الجامعات والمؤسسات الصناعية والصحية وغيرها في المدن الكبيرة في المملكة العربية السعودية وذلك لاشعارهم بأن الحضارة والمدنية تنمو وتزدهر في ظل

الإسلام، كما يحدث في المملكة العربية السعودية التي تلتزم بالإسلام نظاماً وحكماً وذلك بغية رفع معنوياتهم الإسلامية وحتى لايسيطر عليهم الشعور باليأس والانعزال وتستغل الأجهزة المعادية للإسلام فراغهم الروحي وحيرتهم الفكرية في العمل ضد الإسلام والمسلمين.

هذا والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
معلومات تتعلق بداغستان	٩
سكان داغستان	١٠
اللغات في داغستان	١١
انتشار اللغة العربية في داغستان	١٢
نظرة إلى تاريخ داغستان	١٤
دخول الإسلام إلى داغستان	١٥
الإحتلال الروسي لداغستان	١٨
الإسلام والمسلمون في داغستان	٢٢
الشيخ محمد شامل القمري الأفاري في بلاد القفقاس	٢٥

يوميات الزيارة

على الحدود بين أذربيجان وداغستان	٣١
إلى بلاد الداغستان	٣٣
هل أنا من داغستان؟	٣٤
مع باب الأبواب	٣٥
هذه دربند	٣٦
مائدة دربند	٣٩
أول مسجد في الاتحاد السوفييتي	٤٠
السنة والشيعة	٤٢

الموضوع	الصفحة

الشجرة المعمرة ٤٤
كافر يخطب في المسجد ٤٤
إلى الباب المغلق ٤٧
مقبرة الشهداء ٤٧
فتح قلوب، لافتح حروب ٤٨
حديث الدليل ٤٩
ماذا يقول التاريخ الإسلامي؟ ٥٤
مغادرة دربند ٦٠
قرية أزيرباش ٦٣
في محج قلعة ٦٤
مأدبة داغستانية ٦٥
قال الشيخ عبدالحفيظ ٦٧
صباح داغستان ٧٠
في رئاسة مجلس الوزراء ٧٠
إلى مدينة بوبناكسكي ٧٤
في ريف داغستان ٧٧
أول قرية أسلمت ٧٨
مدينة بوينا كسكي ٧٨
الحفل الخطابي ٨٥
اللغات في داغستان أيضاً ٨٩
غداء المتولي ٩١
محطة توليد الكهرباء ٩٥
مسجد محج قلعة ٩٨
المأدبة الحافلة ١٠٠

الموضوع	الصفحة

كلمة مؤرخ داغستاني ١٠٨
في متجر حكومي ١١٥
المتحف التاريخي لداغستان ١١٦
حجر من جزيرة العرب ١١٨
مخلفات إسلامية ١١٩
حركة الإمام شامل ١١٩
تاريخ محج قلعة ١٢١
الزراعةوالثقافة ١٢١
إلى بلدة تارغو ١٢١
السلام الكثيف ١٣٢
مغادرة تارغو ١٣٣
بلدة مسلمة ١٣٥
في جمهورية الشيشان ١٣٦
بلدة أدورمس ١٣٧
هذه هي كروزني ١٣٨
ميدان الزيزفون ١٤٠
في مطار كروزني ١٤١
مغادرة كروزني ١٤٣
الخمر والحية ١٤٤
الشفق الطويل ١٤٧
بلاد الشفق والغسق ١٤٧
في مطار أوفا ١٤٨
نهاية الحديث ١٤٩
التوصيات الخاصة بالعمل الإسلامي في الاتحاد السوفييتي ١٥١

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣